

خالد المهدي

أسطورة



متاهة العنكبوت

رواية

AROMA

الرواق للنشر والتوزيع


ساحر الكتب


أسطورة
العلي الزيبق
متاهة العنكبوت



أسطورة علي الزيبق (رواية)

خالد المهدي

■ الطبعة الأولى .... يناير 2017

الغلاف: تنفيذ آروما بيكتشرز

التصحيح اللغوي: محمد حمدي أبو السعود

رقم الإيداع: 2016/25388

الترقيم الدولي: 9 - 000 - 824 - 977 - 978





186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

خالد المهدي



رواية

الرواق للنشر والتوزيع ـ آروما بيكتشرز



«إحياء البذرة دفنُها»



جبل الموت

ذيل فستان يُجر أرضًا، فيحف غبار ممر يعرج داخل جبل الموت. صاحبة الفستان كعب نعلها الذهبي الرفيع يدهس بثقل حسمها تحته الحصى، النعل يضرب بقوة بإيقاع كبندول الساعة، حتى توقفت ودفعت بيدها بابًا ذا مقبض من حديد صرّت مفاصله. دلفت إلى حجرتها وتحركت نحو طاولتها المستقرة أمام نافذة حجرية، حُفرت وفرغت فأطلت على معبد، فأبصرت أخاها فوق منبره الحجري، يخطب في أول فوج من رجال جبل الموت، عددهم أربعون قبلها. استقبلهم احتضانًا والآن يهيئ عقولهم لخطة خُطَّت من قرن، يمشي فوق صراطها هو وأخته.. ابتسمت وجلست أمام طاولتها الحجرية المنحوت عليها رسم بآية «بأيديهم يذبحون أعداؤك أنفسهم ذبحًا» خُطت في عقلها كما خطت في كتابها المقدس.

أمسكت مطوية فردتها فوق الطاولة، فغطت الآية وأمسكت قلمها ووضعته في المحبرة بأصابعها الرفيعة التي دب فيها شريان نافر أخضر، وأخذت من الحبر الأسود لتكتب. وقبل أن تكتب ابتسمت بشفتيها الرفيعتين استمتاعًا بما سيحدث بعد وصول الرسالة.. وضعت القلم فوق الرسالة وبدأت تخُط بحروف الدم...

عزيزي: سُنقر الكلبي



مملكة سنقر الكلبي - الغابة

قمر بقي له يوم ويكتمل، انعكس ضوؤه فوق غابة من الأشجار تعرت أغصانها مُتطايرة أوراقها من فصل خريف، هواؤه ليس له القدرة ليهجم على جذور الشجر المُستدفئة تحت الأرض المرتجة لضرب حوافر خيل غاضب لغضب من يقودها سنقر الكلبي.. حاكم في عصر خنق فيه الشر بقبضته عُنق الخير، والليلة سينهي على آخر أنفاسه بيديه.. يده اليمنى كبير جماعة الذعر، ويده اليسرى كبير جماعة البصاصين. الثلاثة يخترقون هواء انعكس في وجههم وفي أدبارهم.. فرقة موت أخذت أمرها من «دليلة» بقتل «حسن رأس الغول».



بيت حسن رأس الغول

صفير هواء في ليلة الخريف، زادته فتحات نافذة خشبية لغرفة «علي».. يدثره أبوه حسن رأس الغول بغطاء نومه. ابتسم الطفل ذو العشرة أعوام باطمئنان، فوضع الأب يده فوق صدره وطبطب، كم يحبُ أن يستشعر دقات قلب ابنه الهادئة بكفه كل ليلة، ولا يدري لماذا في هذه الليلة لم يرغب أن يحكي له من القصص والأساطير التي يحبها الطفل، إنما أراد ـ بشغف لا يعرف سره ـ أن يفضي إليه بوصية:

ـ إذا أصبحت الأحداث حولك سريعة وإذا اختلط الشر بالخير، وإذا تهت وضاع منك الطريق، تأكد يا بني أنه لن يسعك في هذا الوقت غير كهفك.

بخيال طفل تصور كلمات الأب.. رأى علي في خياله كما يرى النائم في حلمه أنه يقف أمام جبل عال غطته ظلمة الليل؛ لا يكاد يرى كفيه. في أعلاه كهف خرج من فوهته نور نارٍ مضيئة، فسمع وصية أبيه وهو داخل خياله:

ـ مهمتك أن تجد كهفك...

يصعد علي الجبل نحو الكهف ويقف أمامه في خوف

ـ وإذا وجدته ادخل ولا تخف...



يدخل علي الكهف في حذر

ـ كلما تعمقت داخل كهفك كُشِفَ لك عن أسرار نفسك...

سمع علي صوت نحل يدوي بقوة داخل الكهف فتوقف

ـ وكشف الأسرار له ثمن...

يهجم النحل على الطفل علي حتى يحيطه يدوي في أذنه.. يشعر بهواء أجنحته على جسده

ـ وتأكد أن في كهفك الظاهر ستجد عذابًا...

النحل يغرز إبره السوداء في جلد جسده. يتألم علي.

ـ إذا صبرت على الألم سيعطيك مناعة من أي ألم بعد ذلك.

ينتفض علي بجسده بقوة، فينتفض النحل من فوقه تاركًا إبره السوداء في جسده. لا يشعر الطفل بألم الآن. بهدوء رفع كفه نحو الإبرة المغروسة فوق قلبه يريد أن يتأكد من نبضه، وقبل أن تصل يداه إلى قلبه خرج من خياله الطفل، إذ رفع أبوه يده من فوق قلبه. فنظر علي إليه بتوتر وسأل:

ـ لماذا رفعت يدك عن قلبي يا أبي؟

ابتسم الأب، وقبل أن يجيب سمع خارج البيت صهيلا وصليل دروع وسيوف تتقارع.. قلق علي فنظر رأس الغول لابنه بهدوء مبتسمًا ليشعره بالاطمئنان وطلب منه:

- علي.. أريدك أن تغمض عينيك، ومهما سمعت في هذه الليلة لا تفتح عينيك.

نظر إليه علي، وقبل أن يسأل تصاعدت أصوات بالخارج؛ أقدام تدب بحراك أحاط البيت، وسيوف خرجت من أغمادها، ونداء الغدر أتى من أمام البيت بصوت سنقر الكلبي:

- يا حسن رأس الغول.. أُخرج إلينا.

هم علي الطفل بالقيام من نومته، فأمسك حسن رأس الغول بكتفيه ونظر إليه مبتسمًا وسأل:

- أتثق في أبيك حسن رأس الغول أم لا؟

- بالتأكيد يا أبي.

بهدوء أعاد حسن ابنه نومًا، احتضنه دفئًا، وقال في أذنه بصوت خافت:

- إذن أغمض عينيك ولا تبالِ.

انصاع علي الطفل وأغمض عينيه طوعًا، فخرج الأب من حضن ابنه وداعًا، وأغلق من خلفه باب الغرفة أمانًا. استل سيفه من غمده. أخذ درعه من فوق جداره. توجه نحو الباب فتفاجأ عن يمينه بخروج فاطمة من غرفته تنظر إليه مستندة على الجدار.

ـ أين ما أسررنا به عندما تحين الساعة يا فاطمة؟

نظرت إليه بدموع ملأت عينيها وتكاد تحجب الرؤية، فاستطرد حسن:

ـ أهذا وعدك لي يا فاطمة؟!

بادرت بتحدٍّ:

ـ سأحاربهم معك.

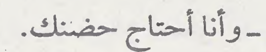
فتقدم نحوها آمرًا:

ـ إلى النفق يا فاطمة.. اذهبي.

ـ قلت لك إنهم عش عناكب يأكلون بعضهم، فلمَ لا يأكلونك! قلت لك لا تأمن لهم.

ـ أهذا وقت العتاب يا فاطمة! سأعطلهم حتى هروبكما.. اذهبي.. علي ينتظر حضنك.





ـ وأنا أحتاج حضنك.

اندفعت نحو حضنه غرقًا. التف بذراعه حاملة الدرع حبًا. تتشمم رائحة جسده تشبعًا كأنها المرة الأخيرة. ينسال دمعها على صدره فيشعر بدفئه وضعفه لفراقها. اقتلعها من حضنه كشجرة تُجتَث من قلب الأرض جبرًا، ناظرًا إلى عينيها حنانًا، وانكب بين عينيها بقبلة تركت أثر طعم جبهتها في شفتيه.

لم يرد أن يُطيل، فانسحب بهدوء وقال ناظرًا إلى عينيها مطمئنًا:

ـ سآتي إليك في المنام يا فاطمة

وابتسم بيقين وأردف:

ـ إلى أن نتقابل مرة أخرى.

تغلغلت كلماته في روحها، واستقرت في قلبها صدقًا، فهدأ روعها، فالتفت بظهره لها منتظرًا صوت قدميها تذهبان. انطلقت بخطوات مرتعشة. دبت الوحدة في قلبه كأن نورًا ساطعًا يضيء طريقه أظلم فجأة، فأمسك بمقبض باب الخروج ليؤنس وحدته بشجاعة يطرد بها طعم الفراق.



فتح الباب بقوة فلفحه هواء يحمل ذرات ورق شجر أصفر أصبح حطامًا. أغمض عينيه اتقاءً ثم فتحهما سريعًا ليرى أمامه جماعة الذعر والبصاصين على رأسهم سنقر الكلبي، وقد صنعوا نصف دائرة أمام بيته مدجيين بأسلحة ودروع، ووجوه ختم عليها بالغضب والقسوة، فتقدم نحوهم دون خوف وصاح:

ـ سُنقر يا كلبي.. اهبط من فوق حصانك وواجهني بسيفك.

فسخر الكلبي:

ـ بيتك تطرف فصعب الطريق وأتعبني طوله.. نجعلها يومًا آخر.

وضحك فضحك الجند، ثم وثب من فوق حصانه وقبل أن تصل قدماه للأرض، كان جنود جماعة الذعر قد أحاطوا برأس الغول رافعين السيوف متحصنين وراء الدروع. طاف رأس الغول بعينه في أعينهم بهوان، فارتعشت الدروع في أياديهم خوفًا، فصاح سنقر ليقطع الصمت وخوف جنده:

ـ حسن يا رأس الغول!

انتفضت أجسام الجند من الصياح. تحرك سنقر الكلبي حول دائرة الجند المغلقة حول حسن وهو يتكلم:



ـ لا تغضب مني يا حسن.. أتعلم؟ كل ما يحدث لك من تخطيط دليلة. ولا تعلم كم هي تحبك. ألا تريد أن تسمع رسالتها؟

وقف سنقر ودس يده في جيبه وأخرج مطوية. رسالة دليلة مربوطة برباط أسود فكه وأخذ يقرأ:

عزيزي سنقر...

لعل الليلة هي آخر ليلة لكل من أتعبوك لسنين... العيار والعياق والشطار، وعلى رأسهم حسن رأس الغول من جمعهم ووحدهم، وإني قد أخرجتهم لك من الجحور وأريد أن أزف إليك حكمة الصراع مع هؤلاء. إن البشر جميعهم أشرار، وإن من ادعوا الخير ما أوقفهم عن صراعهم معك إلا أننا أغريناهم بمشاركتك الكرسي، وقد التقموا الطعم كسمكة غبية، فلا تحزن يا صاحب القلب الطيب، فهم يستحقون سيفك بعد أن أخرجت رقابهم من جحورهم. فلتستل سيفك ولتتفرغ لحكم مملكتك الأكبر في كل الممالك الاثنتي عشرة. واعلم أنه إذا سقطت مملكتك ستسقط كل الممالك من حولك بحُكامها. لا عذر لك عندي بعد اليوم، فاحفظ عرشك بمباركة ختم سلطان البلاد.

هنا يرسم ختم الرسالة

سلطان البلاد بهلول براقش



أنهى سنقر قراءة الرسالة في محيط دائرة جنده خُطوًا، وتوقف قُبالة حسن ناظرًا إليه من بين كتفي جنديين من جماعة الذعر عريضين طويلي الجسم. رمق حسن بنظرة وصاح:

ـ اقتلوه...

•

فهجم الجند فالتقى السيف بالسيوف وصدت الدرع، وطُعِنَ بطن جندي وطارت رقبة آخر، وتفادى رأس الغول سيفًا هاجم من الأمام وسيفًا من الخلف، بخفة انسحب من بينهما فاستقر كلا السيفين في بطن الجنديين، وقبل سقوطهما نظرا إلى بعضهما نظرة غضب وغباء؛ ثخن القتال فأطاح حسن بسيفه رقاب ثلاث، فنفرت الدماء وسقطت الأجساد من حوله قتلى، فهاج من خلفه جند؛ لم يشعر إلا وأحشاؤه خارج بطنه من شق سيف باقر، فنظر الباقون إلى حسن خوفًا. ينظرون إلى دمائهم على ثوبه وعلى سيفه الذي يقطر فوق جثث أصحابهم المتفرقة تحته، فهلعوا واصطنعوا أمام قائدهم أخذ أنفاسهم بنظرات زائغة خوفًا من الموت، فصاح قائدهم كبير جماعة الذعر داخل الأحراش:

ـ ما الذي تنتظرونه؟!

من داخل الأحراش زمجرت النبال شدًا. سمعها رأس الغول فانتفضت حواسه لها، وقبل أن ينظر نحو الأحراش خرجت منها السهام تتسابق تراشقا في جسده. لم يشعر إلا بوخزات غير مؤلمة ثم تخديرًا ثم شهيقًا لم يكتمل لخروج الدماء من رئة تهتكت فنفر الدم من الفم سيلاً. تقدم إليه



سنقر باسمًا بغرور أبى حسن أن يسقط على الأرض أمامه فحمل قدميه نحوه، فانقشع غرور سنقر وحل مكانه ذعره، فابتسم له حسن وزاغت عيناه لسكرات موته، فهوى جسده وارتكز على ركبتيه واستند على سيفه قبضًا، واستجمع قوله:

- ستعيش جبانًا وتموت جبانًا يا سنقر!

تقدم سنقر الخطوة التي رجعها وقال بهدوء الضباع:

- تعتقد أن هذا شيء يضيقني يا حسن؟! بالتأكيد نهايتك تجعلني أتمسك بجُبني.

لم يجد رأس الغول ردًا. وبقوة غرز سيفه في الأرض شقًا. كانت إشارة لمن تحت الأرض أنه قد قتل، بعدها ترك قبضة السيف وترنح نصفه، وما بين الحياة والموت سمع طنين نحلة، رآها تهبط من السماء وتستقر فوق مقبض سيفه المغروز في الأرض. لا يدري لماذا اطمأن لوجودها!

- أهذا هذيان الموت؟!

هكذا سأل نفسه وابتسم وهو ينظر إلى النحلة، فردت عليه بحركتها صعودا، ومع صعودها شعر بصعود روحه.

- روحي تخرج من جسدي.

النحلة صعدت إلى خصره وعين حسن عليها.

- زوجتي حبيبتي...



روحه تصل إلى الحلقوم.

ـ ولدي.. هل تركت فيك بذرة خير؟

روحه خرجت من جسده، فطيُرت رقبته بسيف كبير جماعة الذعر فطاخت رأس حسن أرضًا.

ـ يوضع رأسه في صندوق من فضة ويرسل إلى سلطان البلاد كما أمر.

قالها سنقر ومضى نحو بيت حسن. سبقه سبعة من الجند رافعين السلاح مقتحمين البيت باحثين في كل ركن وفي كل غرفة، طاعنين محاصيل طعام كاسرين قوراير عسل النحل داهسين بأقدامهم طعام عشاء صاحب بيت قد قتل، جاثوا وعبثوا في حرمة غرفة زوجته وقطعوا فيها كل ثوب لها وله.

ـ لا يوجد أحد بالبيت سيدي سنقر.

قالها أحد جُند الذعر، فلم يسمعه سنقر الواقف في منتصف البيت سارحًا يتأمل في استعجاب: كيف يكون رأس الغول بطلاً وبيته بهذا الفقر؟ قال الجندي بصوت أعلى:

ـ درك المملكة سنقر...

انتبه سنقر متأخرًا وبادر في حدة:

ـ أين زوجته وابنه؟ أريد أن أرى هل جميلة أم أن ذوقه فيها مثل بيته؟

ـ سيدي.. قلت إنه لا يوجد أحد بالمنزل.

تقدم إلى الجندي في غضب، يجب أن يُقتل طفله ويُمحى نسله، يجب أن يَقتل زوجته لعل في أحشائها شيء منه:

- كيف لا يوجد أحد أيها الغبي! كبير البصاصين.. ألم يأتك تقريره بأنهم جميعا بالبيت؟

جاء جندي آخر خلف سنقر يصيح:

- سيدي سنقر.. توجد في هذا الممر غرفة.

التفت سنقر نحو إشارة الجندي وبصر الباب. باب غرفة علي. تحرك نحوه فتبعه الجند. كم يود سنقر أن يتحقق ما في خياله ويفتح الباب فيجد زوجة حسن وابنه في ركن ما في الغرفة مذعورين خوفا. كم يود أن يأخذ منهما صك الشماتة فيهما وفي بطلهما الملقى خارج البيت دون رأس. باستمتاع قبض سنقر الكلبي بيده مقبض الباب. بهدوء أداره وبهدوء سمع علي الطفل من تحت سريره فتح مزلاج الباب يصحبه صوت تروس تئن، فكاد يفتح عينيه ولكن تذكر عهده مع أبيه يتردد في أذنيه:

- لا تفتح عينيك مهما حدث يا علي.

تصطك في أذني الطفل التروس أكثر كلما أدار سنقر مزلاج الباب بالخارج، ولما استدارت في قبضته استدارة كاملة استدار سرير الطفل علي إلى أسفل وعاد فارغًا في نظر سنقر الكلبي الذي اقتحم الغرفة هو وجنود الذعر بحثًا.



النفق

وقف أحمد الدنف صديق حسن رأس الغول في نفق الهروب. تم حفره ليعرج إلى ثلاثة مخارج أبعدها مخرج البئر. أخذ فاطمة إليه إنقاذًا، وعاد ليأتي لها بابنها علي منتظرًا تحت غرفته في البقعة المحددة تحت السرير. سمع التروس تتحرك فعلم أن هناك من يفتح الباب. رفع يديه وما كاد يفعل حتى سقط عليه الطفل فالتقفه بقوة وجرى في قلب النفق، وترك وراءه دبيب أقدام تبحث عن الزوجة وابنها وصرخة من سنقر:

- سأقتلكم إذا لم تجدوا زوجة رأس الغول وابنه...

قال أحمد الدنف لعلي يطمئنه:

- لا تخف يا علي.

فاطمأن لصوت الدنف؛ هذا الشخص الذي رباه مع أبيه.

لم يتفوه علي. لم يسأل. لم يفتح عينيه. عيناه تتلاعبان تحت جفنه. رائحة مشاعل النار المطعونة في جدران النفق تغزو أنفه. يهتز جسمه من هرولة الدنف به هربًا يطوي الأرض تحت قدميه طيًا، وانعطف في النفق ثلاثًا حتى وقف عند البئر الساقطة في قلبها أشعة القمر. في الأسفل وقفت



فاطمة وقدماها في حبل كلجام حصان وتقبض بقوة على آخر يمتد إلى خارج البئر. تبادلت هي والدنف النظرات فعلمت أن حسن قد قُتل. اضطرب القلب وكذب الفؤاد ما علم ورفض العقل الحقيقة. موت الذي لن يموت في القلب.

ـ فاطمة!

قالها الدنف بهدوء ليأتي بها من عالمها. حبست دمعها ومدت يدها نحو طفلها، فوضعه الدنف بين أحضانها. بهدوء نظرت لأعلى البئر فأصابها القمر بنوره. شدت الحبل فكانت إشارة لمن في الأعلى أن يشدها، فسحبها فاهتز جسدها وسقطت دمعة على صدر علي موضع آخر ما لمس حسن رأس الغول. نظرت إلى على هنيهة تتأمل فيه حسن الذي لم يمت بداخله، ومالت إلى أذنه وقالت بصوت مُتهدج:

ـ افتح عينيك يا علي!

عندما فتح عينيه امتلأتا بوجه أمه. لم يرَ ملامحها بوضوح؛ القمر من خلف رأسها كسا ما حولها ضياءً يخرجون نحوه لأعلى البئر حتى ظهر في أعينهم ما يسحبهم. سالم. أخذ علي من حضن أمه وأسنده حتى أوقفه بجوار ابنته الطفلة زبيدة التي استقبلت علي بابتسامة عطف، فنظر إليها

علي في حيرة، موزعًا نظره بين زبيدة وبين أمه التي خرجت من البئر واستقرت وقالت بسرعة:

ـ سالم.. أريدك أن تأخذني إلى مخبأ العُياق سريعًا.





مخبأ العُياق

مرآة تربعت في حائط من طين، حولها شموع مضيئة رصت بعناية من قبل، تحتها أدراج فيها ما يغير ويجمل ويزين الوجوه. من قبل كانت هذا المرآة وأدراجها في غرفة البهلوانات والمهرجين من الشطار والعياق. يضحكون الناس ترفيهًا وفرحًا في حلقات. يتجمع الناس حولهم ويلقون عليهم بالدنانير فيرجعون بقوت يومهم بنفس فرحة من أفرحوهم. حتى تبدلت حال المملكة، فلم يعد في الجيوب دنانير، وأراد الناس ضحكا وفرحًا دون دفع مال، فتبدلت حال العياق والشطار فقرًا. سرًا انتقلت مرآتهم بأدراجها وأدوات وألوان وملابس تنكرهم إلى مخبأ العياق. قبلها صنع منهم حسن رأس الغول محاربين معه، وميز الشطار جسدهم باللون الأزرق، والشطار باللون الأحمر، وانضم إليهم العُيار المشهورين بالقتال عراة إلا من ستر العورة، وبلا دروع، دليل الشجاعة. اشتهروا بالسرعة وخفة الحركة، وهم من حملوا المرآة داخل مخبأ العياق، وعندها قال كبيرهم حمزة البهلوان:

ـ نحن معك يا رأس الغول في السراء الضراء.

نظر الواقف بجواره سالم العايق بحزن لقوله، ولما انفردا بحمزة أفضى له بالقول:

ـ يا حمزة إني لا أُجيد في حياتي إلا رسم الملامح بالألوان وتغيير رسمة الحزن إلى فرح، ولم أتخيل أن أحمل سلاحًا!



ـ الأيام دول.

هكذا رد حمزة ثم استطرد:

ـ لعل هذه الحروب تعيد الحقوق ويعود معها حق عودتنا كما كنا بالأمس، مضحين لا محاربين.

نظر إليه سالم ولم يجد غير أن يقول:

ـ وإني لن أقول لك إلا ما قلته لرأس الغول.. إني معك في السراء والضراء.

من وقتها سالم لم يلون وجه برسمة ابتسامة. لم يدخل غرفة العياق من زمن، حتى إنها تبدلت من غرفة عياق إلى مخبأ. معارك طاحنة تأكل في ذكريات الأمس كلها دبت في مُخيلة سالم عند دخوله إلى مخبأ العياق، حاول أن يطردها ليركز في تغيير ملامح الطفل علي كما أمرته فاطمة. علي، المنعكس وجهه في المرآة تتلاعب ألسنة الشموع فوق نصف ملامحه التي تبدلت، حُلق نصف رأسه، جحظت عيناه تحديدًا بالأسود، نصف بشره وجهه القمحية أصبحت سمراء داكنة، كأن نصف وجهه شر والنصف الآخر خير.

ـ انظري يا ست فاطمة!

قالها سالم وهو يدير علي الطفل نحو أمه الجالسة بجوار زبيدة، فتأملته



فاطمة وخافت زبيدة فتمت الفتاة الصغيرة خوفًا:

ـ ستفعلون بي كما فعلتم بعلي يا أبي؟!

قامت سريعًا فاطمة نحو ابنها وخفضت صوتها بالقول لسالم:

ـ خذ زبيدة يا سالم وانتظرني أنت بالخارج، وسأكمل النصف الآخر.

أومأ لها سالم بالإيجاب، وتقدم نحو ابنته المعلقة نظرها بعلي، وهو كذلك ينظر إلى القلادة المعلقة في رقبة زبيدة، صنعها لها بعناية. عُلقت فيها خشبة بحجم عقلة إصبعه. قطعها سداسية كخلية نحل.

ونحت فيها رسمًا بابتسامة.

ـ رسمت فيها ابتسامتك.

قالها علي من قبل عند إعطائها لها فتبسمت له. خرج علي من خيال ذاكرته مع خروج زبيدة مع أبيها سالم. فاطمة نظرت إلى نصف ملامح ابنها الحقيقي وقالت:

ـ عليك أن تنسى كل قصص الأساطير التي تعلقت فيك من أبيك من قبل أن تنطق.

نظر على إلى أمه استغرابًا، فاسترجعت الأم حدة سرعتها بالقول، واستجمعت أفكارها المندفعة داخلها لحسم أشياء سريعة، والوقت ضيق. أدارته نحو المرآة بهدوء وبأهدأ أمسكت شفرة الحلاقة النحاسية وبللت يدها من إناء موضوع تحتها، ومسحت به نصف رأس علي المكتسي بالشعر،

ثم وضعت الشفرة النحاسية على أول منبت شعره، فانتظر ألمًا لم يبرد بعد في نصف رأسه الآخر، وقبل أن تجزه قالت:

ـ أنت لم تعد صغيرًا يا علي...

صمتت لترى في عينيه أنها قد لفتت انتباهه، فوجدت ما أرادت، فسحبت من منبت شعره جزًا وقالت:

ـ العياق.. والعيار.. والشطار

توقفت عن جز شعره وصمتت برهة، وكادت لا تنطق بما تريد قوله:

ـ خونة

نطقتها فقاوم علي برأسه قبضة أمه على رقبته من الخلف، فخدشت الشفرة فروة رأسه. لم يبال ملتفتًا لها سائلاً:

ـ عمي حمزة وعمي أصفان وعمر العيار.. خونة؟!

ظل مشدوه الملامح إلى أن أومأت أمه بالإيجاب كذبًا حابسة دمعها. أدارته مرة أخرى نحو المرآة، وأكملت جزها يتساقط الشعر تحت قدميها، ثم أردفت:

ـ بل قتلوا أباك...

ترددت في يدها ضربات قلب ابنها التي تتصارع بداخله ضربًا تنتفض منها عروقه، فطرقت بقولها بقوة:



ـ لا تختر ما اختاره أبوك.

عيناه امتلأتا بالدمع المحبوس.

ـ لن يتحمل قلبي أن يحدث لك ما حدث لأبيك.

فاضت عيناها بالدمع، ففاض قلب الطفل بالخوف على أمه. تذبذبت شفتاه حراكًا، لا يجد كلمة يطمئنها بها، فأومأ لها مُجيبًا لما تريد. فسقط دمعه المحبوس فوق شعره المجزوز بيدها وقد انتهت منه، أمسكت بالمكحلة وحددت رسمة عينه جحوظًا ثم قالت:

ـ لا يوجد لك اختيار بين الخير والشر، الشر دائمًا ينتصر. وعليك إما أن تختار الشر وإما أن تختفي عن عينه.

عيناه أصبحتا أكثر حدة. أمسكت صندوقًا خشبيًا صغيرًا مثلثًا، فتحت غطاءه فلمعت حبات دقيقة من مسحوق أسود، سكبت بعضًا منه داخل حَجَر مجوف بحجم كوب، ثم أتت بقماشة بيضاء معقودة على حبات نحاس. أخذت ثلاث حبات ووضعتها فوق المسحوق الأسود، وبحديدة بحجم مقبض اليد لها رأس طحنتها ببعضها طحنًا. قالت:

ـ لن يعرفك أحد بعد اليوم، ولن يكتشف حقيقتك أحد.. سأجعلك تختفي تحت جناح من سيقتل الخونة. هو الذي سيحميك منهم... سنقر الكلبي.

ارتعش جسمها عند إطلاق اسم قاتل زوجها، فتذبذبت هالة جسمها في هالة جسم ابنها التي تموجت وتعالت وتلاطمت في أنحاء نفسه. يغرق

في أفكاره بما زرعه فيه أبوه وما تقتلعه أمه قبل أن ينبت. تقتلعه من جذور قلبه.. فكيف؟ سنقر هذا الذي ارتسم كمثال الشر في عقله!

ـ وهل لي وسط هذه الأمواج المتلاطمة في نفسي إلا أن أرتمي في حضن أمي؟

يحادث نفسه فردت أمه:

ـ عليك أن تثق فيّ فقط، ولا تسمع لأحد غيري، ومهما سمعت لا تصدق غير قول أمك.

ـ لا تقلق يا حبيبي.. حتى سنقر لن يعلم من أنت؟ وإني سأجعله يخاف عليك كما يخاف على نفسه.

سكبت بعض المسحوق على يدها ورفعتها أمام وجه علي، ونظرت إلى نصف ملامح ابنها المنطبعة فيها ملامح حسن رأس الغول الأخيرة قبل أن تدفنها، ثم قالت:

ـ أغمض عينيك يا علي.

ففعل الطفل مستسلمًا لقول أمه، فسمع نفخة أمه على كفها. طار ما صنعت وتناثر متفرقًا على وجهه ليتغير لون بشرته للدكنة.



بعد مرور ثمانية عشر عامًا

جبل اكتسى بالحُمرة، شاهق. زداه حُمرة غروب الشمس فوق جسده القابع بقوة، وتد مُكن له في الأرض، أحاطته جبال بيض، حصون طبيعية أحاطته كالجواري يتوددن إلى قمته دون وصول، تعرجت الطرق أسفل الجبال البيض كتعرجات حيات صنعت طُرقًا تفرعت كلها نحو جبل الموت الأحمر، صنعت الطرق متاهة يتوه فيها من لا يمشي على العلامات. العلامات رايات حُمر يحملها رجال الموت فوق رؤوس الجبال نهارًا، وفي الليل مشاعل. علامات يهتدي بها آخر فوج من شباب الاثنتي عشرة مملكة. هاربون من تيه أنفسهم وفقر وخوف وقتل وتشريد ويأس من الولاة، وهنا الملجأ الأخير لهم بأمل للانتهاء من الظلم. احتشد أربعون شابًا وصلوا بعد ثلاثين يومًا من التقشف في الصحراء لنزع ما في نفوسهم من شهوات. وقفوا أمام بوابة خشبية استعرضت واستطالت. وراءها يقف بشموخ الجبل الأحمر، جبل رجال الموت.

ـ افتحوا الباب.

بصوت غليظ صاح بها من يقود الجمع مقنعًا بوجه فضي ذي ملامح غضب. فُتح الباب الخشبي فاصطكت مفاصله الصدئة مع خشبه الغليظ،



يطقطق صدى الصوت يضرب في الجبال فيرتد في آذان الأربعين شابا، فزادهم رهبة.

ـ تظن أن هنا آخر مطافنا يا علي؟

قالها عواد صاحب علي في رحلته، وأردف:

ـ هل من هنا ستكون بداية صناعة عالمنا الذي هدمه ولاة مملكتنا؟

فرد علي باقتضاب:

ـ سنرى.

بعد البوابة، أمامهم ممر واسع، على جانبيه مشاعل طُعنت في صخر جبلين بينهما يتحرك الأربعون شابًا، يسوقهم رجل طويل القامة تربع بعضلات مُنتفخة له بشرة سوداء مدهونة، تلمع تحت شعلة ناره التي يحملها، ويده الأخرى التف حول معصمها جلد تمساح دُبج بعناية ودُبغ بالأسود وتُرك عليه بروز جلده، روحه حبست بقلب حارس الجبل أو هكذا يعتقد. عندما توقف حارس الجبل أشار بالشعلة ناحية مدق في الجبل يشبه مدرجات غير منسقة حلزونية التفت حول الجبل وصولاً إلى قمته. نظر الجميع إلى بعضهم دهشة وارتيابًا ورهبة وخوفًا. البداية موت. تعلقت عينا علي بقمة الجبل شاعرًا بشيء من المغامرة أو من اليأس من حياة لعلها تنتهي قبل الوصول إلى قمة الجبل.



ـ لن ننتظركم طوال اليوم.

صاح بها صاحب معصم التمساح، ثم سخر:

ـ أنتم لم تروا شيئًا بعد.. هذه فقط البداية.

فتحرك الأربعون نحو المدق صعودًا، فصنعوا طابورًا جبرًا، لضيق المدرجات التي صنعها صخر الجبل صعودًا.

ظلوا ساعة يعرجون نحو القمة حتى وصلوا إلى نهاية مدرجات الصعود، فاحتضنت الأجسام الجبل خوفا من السقوط. الجسم الساقط ستتهشم عظامه، فتشبثت اليد بقوة تمسك بصخور الجبل والقدم تدفع تحتها الصخر إلى أعلى. الصدور تُخدش جرحًا. الأيادي تدمى. ضغط هواء يزداد في الأذن سدًا. الرئة تبحث عن الأنفاس. يضيق الصدر. عرق من الجباه يتطاير في الهواء. سقط ثلاثة شباب أمام أعين الجميع، ثالثهم أمسك على معصمه قبل السقوط ثقيل الجسم، نظر في عيني علي مستنجدًا ألا يتركه. قاوم علي حتى احتك عرق الكف بعرق المعصم انزلاقًا، فانفك الكفان فأغمض الساقط عينيه استسلامًا للموت، وبرزت عينا علي حزنًا عليه.



جبل الموت ـ المعبد

المعبد محفور في قلب الجبل. واسع بحجم ألف رجل. تقعر مثل الكهف وتعرجت جدرانه الصخرية. سقفه العالي علقت فيه صهاريج من نار ازدادت عددًا فوق منبر حفر في قلب المعبد عاليا بسبع درجات. احتشد أمام المنبر الأربعون شابًا. فجأة سمعوا من الخارج صوت مزامير وطبول تضرب بإيقاع راقص. بعد برهة دخلت عليهم فتيات جميلات شبه عاريات بعدد الفتية الأربعين. يتراقصن على صوت المزامير كحيات تتلوى بكل الألوان، في يد كل منهن كأس. أعطت كل واحدة كأسها لمن اختارته، فأخذ الفتية الكؤوس دون إرادة بأعين فتنت وجووه ذهلت، وظلت الكؤوس في أيديهم دون رفع، فدفعت الجاريات الأيدي صعودًا نحو مشاربهم. بعدها، امتلأ المعبد دخانًا من مباخر في أيدي رجال يرتدون كالكهان مقنعي الرؤوس والأوجه، فانغلقت رؤية كل واحد على من أمامه فقط، وغرقوا في الدخان المُخدر يتلاعب بعقولهم فمُدّت الأيادي نحو الجاريات، ولما هبط الدخان دخل طعام على صوانٍ كبيرة يحمل كل واحدة منها ثلاثة رجال، عليها ما تشتهي الأنفس؛ خراف وماعز في أسياخ تفوح رائحتها ويخرج منها الدخان لسخونتها، فتعالت الطبول بالإيقاع فدبت الأقدام بالرقص وتعالت الصيحات بقوة، ودقت القلوب إرهاقًا وموتًا. جباه تعرقت وأثواب مزقت سخونة، ورئات تبحث عن أنفاس هواء فلا تجد، وقد أشبعت الشهوات وتخدرت



الأجسام. اختنق علي في وسط الزحام يبحث عن مخرج، ودفع الأجسام حتى سقط تحت الأقدام.

ـ علي سقط.

صاح بها عواد بلسان قد ثقل وعين زاغت. حاول أن يحمل علي بلا جدوى حتى ظهر فجأة حارسان دفعا الناس وصولاً إلى علي وحملاه، ففتح عينيه فرأى فيما رأى أن صهاريج النار المعلقة في السقف تمد ألسنة نيرانها نحوه، فمد يده لها كغريق أراد ممن ألقاه في البحر أن ينقذه، ثم ذهب من عالم الواقع إلى عالم الرؤى.



رؤيــة علي

(ولعل ما في الأحلام أصدق من الواقع)

أطراف ثوب أخضر تتطاير من نسمات هواء لا أعلم من أين أتت. تلامس روحي قبل جسدي.

دوت أصوات متداخلة أظن أنها دوي نحل يسبح في سماء الجنة فرحًا، ثم ظهر أمامي فجأة وجه بشوش دائري يكتسي بلحية بيضاء تدلت فوق صدر صاحبها.

يده اليمنى معصمها فيه أساور من ذهب.

يده اليسرى أساور من فضة.

قبضة يده تُمسك رأس عصا أتت من جذع شجرة رائحتها تفوح. تغزوني. فاجأني بتحريك شفتيه فأنصت له. لم أسمع شيئًا، ثم...

ومضات من نور هجمت على عيني متقطعة. نور وظلام.

طرف ثوبه يضرب في الهواء فيصدر صوت حفيف لاسع.

ضرب بعصاه في الأرض بقوة فتشققت الأرض برسم دائرة تعرجت منها خطوط تداخلت وتشعبت، سقطت فيها تفاحة مأكولة من شجرة غير مرئية.

شعيرات بيضاء من لحيته سقطت تحت قدمي أسمع صوت سقوطها..

كيف؟!

كل شيء توقف. أعود ببصري مرة أخرى لوجهه فأرى شفتيه تتحركان فأسمع منه:

- اهرب من جبل الموت.. كذابون!





جبل الموت ـ بِرْكة الطين

سماء لامس مشرقها طرف قرص الشمس طلوعًا، لم تدفئ بعد هواء باردًا يلتف حول نفسه تائهًا في الفضاء يبحث عن جسم يلفحه ولم يطل في بحثه حتى وجده. جبل الموت. تحرك نحوه. أحاطه. ملأ قمته التي بها منخفض واسع ببركة طين لزج، تسلل إليها فمسح سطحْها بهدوء وتخلل ببرودته الطين المُغطي من فيه، الساقطين من ليلة الأمس داخل المعبد. أجسام فتية نائمين قرروا أن ينهوا حياتهم بخداع أنفسهم.. ماتوا موتتهم الصغرى، نصف أجسامهم العلوية عارية، اكتست وجوهم باللحى والشوارب مع شعر رأس طويل استمسك بصخر وضعت عليه رووسهم لئلا تغوص وجوههم في الطين فيموتوا موتتهم الكبرى.

ـ علي...

أتى النداء الخافت إلى مسامع علي من بعيد، لم يسمعه جيدًا ولكنه شعر أنه يعرف صاحب الصوت، ففتح عينه جبرًا فتشقق الطين من فوق جفنه فامتلأت عيناه بصاحب الصوت الخافت، فرأى رأسه التفت حوله عمامة تضفر فيها الأحمر بالأسود، تدلى طرفها الأحمر نحوه يتطاير. ذو جبهة عريضة خطت فيها السنون عمرًا، وعين تعمقت بلمعة همة لا تلين، كث اللحية والشارب قمحي بحمرة. علم علي جيدًا أنه يعرف أيضا صاحب هذا الوجه.



- علي يا بن حسن رأس الغول

قالها صاحب الوجه المعروف كمن وجد ضالته

اندهش علي لمعرفته اسمه الذي مات بداخل صاحبه من زمن، فقام بإنهاكٍ ساندًا بيده في طين البركة حتى اعتدل بنصفه العاري، فتشقق عن جسده الطين كأرض بور تتعطش لنقطة ماء، ولما هدأت حركته سأل:

- كيف علمت باسمي؟

خرج صوت علي مُنهكًا ولكن مسموعًا، فبادره صاحب العمامة:

- اخفض صوتك.

نظر من حوله فتبعه علي وانتبه لبرك الطين المليئة بمن هم مثله. الساقطون تخديرًا من ليلة أمس.

- نجحت يا علي؟ نجحت ودفنت نفسك حيًا؟!

- قل لي من أنت؟

نظر إليه برهة قبل أن يجيب صاحب العمامة وقال بهدوء:



ـ أنا اليد التي التقطتك وأنت صغير.

نظر علي إلى صاحب الوجه مليًا، حتى تكون كل شيء في ذاكرته.. صوته وصورته.. عرفه فأبعد عينيه وطأطأ رأسه كأن أباه حسن رأس الغول هو الجالس أمامه، وتمتم علي بخفوت:

ـ أحمد الدنف!

وابتسم علي في سخرية، فقال الدنف بحماسة:

ـ قم يا علي.. قم يا بن حسن رأس الغول.. لن تكون نهايتك هنا.

نظر علي إلى الدنف بيأس، فصارعه الدنف بحماسه:

ـ لا أدري ما يدور في رأسك.. ولكني لن أتركك هنا، لن أتخلى عن وصية أعز صديق عرفته في حياتي.

فقال علي بيأس:

ـ ومن قال لك إني أريد الهروب؟ هنا آخر مطافي.



فبادر الدنف:

ـ القتل والاغتيالات بأمر شاهو.. هنا أنت من تغتال نفسُك...

صمت مفتحمًا عيني علي، ثم استطرد:

ـ يجب عليك أن تُكمل ما زرعه فيك حسن؛ أن تعيش فارسًا وتموت فارسًا مثله.

ثم هدأ الدنف وأردف:

ـ ما أتي بك هنا رفضك لحياتك واتكائك على يأسك.. لعل العيب ليس فيك.. لعل العيب كان فيمن حولك.

ثم واصل بصدق:

ـ أنت مكانك معنا يا علي...

تبادلا النظرات. يحاول علي تصديق كل حرف قاله الدنف، ولكن كذَّبه كل ما رأى في حياته، فرد علي:

ـ حماستك تشبه حماسة كل صاحب فكرة اقتنع بها ولا يرى غيرها، واعتقد أنه بها سيغير العالم...



صمت ثم اختتم:

ـ الشيء الوحيد الذي تعلمته من أبي وما حدث له أنكم تعيشون كذبة.

تأكد عند الدنف ما زرعته أمه فاطمة فيه من خنوع، فقال الدنف بحكمة:

ـ إذا كان كل ما حولك كذبة فما الذي ستخسره؟ فلتجرب كذبتي لعلها حقيقة.. تعال معي وسآتي هنا إلى بركة الطين وأدفنك بيدي وأدفن نفسي معك إذا كنت كذبة أخرى في حياتك.

غزت كلمات الدنف علي. وقف أمامها وحصن التردد يمنعه، فهجم الدنف على تردده:

ـ غدًا سيتم تنصيبكم كأفراد من رجال جبل الموت، بعدها يتم تدريبكم على القتال، والبداية سيخطب فيكم شاهو ليبث أفكاره فيكم، وإني قد خططت كل شيء لهروبك.

مد الدنف يده لعلي. برهة وأمسك علي بيد الدنف فأسنده وأقامه وتحركا معًا حتى وصلا إلى حافة الجبل، فقال الدنف:

ـ الحبل الذي صعدت به إليك سيكون في انتظارك الليلة.



أشار الدنف إلى حبل بطرفه خُطاف طعن في صخرة، وأردف:

ـ سيكون في انتظارك جمل يعرف طريقه نحو الشاطئ.

ثم أخرج من سيالته حجرًا يشع نورًا أخضر، مده الدنف نحو علي فانعكس الضوء على وجهه.

ـ عندما تصل إلى البحر اتخذ سبيلك بمحاذاته عن اليمين مشيًا حتى يتغير لون نور الحجر، عندها سيأتي لك الآتي من البحر.. اتبع أمره.

أخذ علي الحجر يتأمل سره.. فأجابه الدنف:

ـ نور الحجر يغير لونه يُود البحر

ثم أخرج زجاجة بحجم إصبع بها سائل أحمر قاتم وقال:

ـ الليلة سيستقبلكم شاهو بسم كلامه، قبلها سيملأ المعبد دخانًا مُخدرًا يهيئ لكم كلامه حاضرًا، فيلبي السامعون أوامره طوعًا.. هذه الزجاجة الصغيرة ستُبطل مفعول سُمه.

بآلية أخذها علي، وأكد الدنف:

ـ أحب أن أقول لك يا علي.. إن كل ما ستراه الليلة في المعبد ما هو إلا خدعة ووهم، وأول فرصة للهروب من المعبد لا تُضيعها.



جبل الموت ـ المعبد

نعل ذهبي يصطك صعودًا فوق مدرج حجري عدده درجاته سبع. نهايته خُلع النعل واستدار صاحب القدم بأصابعه الغليظة ناحية الجمع تحته. رفع ساقيه تربيعًا تحت جسمٍ ممتلئ لحمًا وعقلاً فكر ودبر بِشَرٍّ يتلون ويتموج، كلون عباءته المصنوعة خيوطها من الذهب والفضة والنحاس الأحمر، تتلألأ ألوانها من انعكاس نارٍ لمشاعل طعنت في أعمدة المعبد البيضاوي حفرًا، تعرج جداره وأحاط بداخله اليائسين: شباب سيصبحون قريبًا من رجال جبل الموت، يرفعون رؤوسهم ناحية ساقي عقولهم الكذب (شاهو) المتربع على كرسيه. ذو لحية تضفرت طولاً وشعر مجدول أسود توسطته خصلة حمراء.. ألقى شاهو بطرف عينه ناحية الجمع تحت قدميه شاعرًا بما يملك، عقول شباب يتحكم في قوتهم، مشاعرهم، غُضبهم، ويعلم كيف سيروضهم. يرتصون تحته في رهبة مرفوعي الرقاب نحوه شاخصة أبصارهم المنطفئة لحين إشعالها غضبًا، يتحرك بؤبؤ أعينهم مع حركة يده اليسرى بهدوء حتى أمسكت بكأس زجاج متعرج به مشروب قاتم توهج حُمرة.. هزه هزًا خفيفا فتلألأ سطحه، وقبل أن يتجرعه نظر بطرف عينه ناحية نافذة غطتها مشربية خشبية، ابتسم له من يختفي خلفها، دليلة أخته. امرأة نحيلة، أنفها رفيع، وجهها حاد كالسيف، في يدها كأس به ما في كأس أخيها، رشفت منه سبعًا.. انتهيا رشفًا معًا.



عليّ في الخفاء أخرج الزجاجة التي أعطاها له الدنف، أفرغ مرارة ما فيها في فمه ثم نظر إلى شاهو الذي أنزل كأسه ووضعها بجواره، فكانت إشارة لتسريب ما لا يُري، مخدر ينسال بخفة من أركان سقف المعبد. قام شاهو من فوق كرسي منبره الحجري وانتعل نعله الذهبي وأخذت عيناه ترصدان الحشود، ثم أخرج زفيرا ساخنًا مخلوطًا بكلماته الكاذبة:

- يا رجال جبل الموت...

صمت برهة ليرى مفعول سم المخدر في عقولهم، المتحرك في دمائهم يضخ في القلب ضخًا فتدق القلوب دقًا يظنونه رهبة، تعرقت الجباه سخونة، بردت لأطراف، اشرأبت إليه أعناقهم تعلقًا بهذا الذي قام فتبدلت حالهم وتلاعبت النفس بالقول لهم بالظن: إنها حقًا لكرامات وليهم. فلما أحس ما منهم له استطرد شاهو موضحًا:

- مهما رأيتم في هذه الليلة لا تخافوا ولا تفزعوا في حضرتي.

أومأوا له سمعًا وطاعة ورهبة لما رأوه. هالة من النور تحيطه في أعينهم، ازادات مع رفع يده وهو يخطب:

- يا رجال جبل الموت.. وضع الشيطان بيده بذرة الشر وعُطب كل ما في الأرض.

بخّت مشاعل المعبد من حولهم نيرانها فتراءت لهم النيران تنفجر منصهرة من تحت قدمه اليسرى.

ـ وعميت قلوب الناس بالخوف فحصدوا مما زرعوا الجبن والخنوع.

تحت قدمه اليمني انفجر تنور ماء يفور فالتقى الماء بالنار وصنعا حوله قرنا، صرخ من صرخ خوفًا، وبكى من بكى إجلالاً لصاحب الكرامات الكاذبة، فصاح فيهم:

ـ جرى في الدماء الحسد والحقد والطمع بسبب الولاة الظلمة.. يريدون أن نأكل بعضنا بعضًا، ولكن من الآن سنخرج عليهم بالنار والسيف.

انسالت النيران المنصهرة من تحته نزولاً فوق الدرجات السبع حتى اقتربت نحو أقدام الفتية المبهورين، فتراجعوا إلى الخلف خوفًا. فتى بخوف دفع الأجسام وهو يصرخ هربًا خارج المعبد، تبعه علي وقد علم كيف يكون مهربه، فزاحم في خفاء نحو باب المعبد هربًا. تبعه صياح شاهو:

ـ نحن واجبنا أن نخرج رافعين مشاعل النار لنحرق الزرع ونهدم البيت، لنبني ونزرع بأيدينا لا بأيديهم، فالموت للخانعين أهل الممالك الاثنتي عشرة قبل الولاة.. اللعنة عليهم لأنهم رضوا بالظلم فاستُحلت دماؤهم.. لن يوجد على هذه الأرض بعدهم سوى الأقوياء والشجعان.

بخّت مشاعل المعبد من حولهم نيرانها فتراءت لهم النيران تنفجر منصهرة من تحت قدمه اليسرى.

ـ وعميت قلوب الناس بالخوف فحصدوا مما زرعوا الجبن والخضوع.

تحت قدمه اليمني انفجر تنور ماء يفور فالتقى الماء بالنار وصنعا حوله قرنا، صرخ من صرخ خوفًا، وبكى من بكى إجلالاً لصاحب الكرامات الكاذبة. [illegible]

ـ جرى في الدماء الحسد والحقد والطمع بسبب الولاة الظلمة.. يريدون أن نأكل بعضنا بعضًا، ولكن من الآن سنخرج عليهم بالنار والسيف.

انسالت النيران المنصهرة من تحته نزولاً فوق الدرجات السبع حتى اقتربت نحو أقدام الفتية المبهورين، فتراجعوا إلى الخلف خوفًا. فتى يخترق دفع الأجسام وهو يصرخ هربًا خارج المعبد، تبعه حي وقد علم كيف يكون مهربه، فزاحم في خفاء نحو باب المعبد هربًا. تبعه صياح شاهو:

ـ نحن واجبنا أن نخرج رافعين مشاعل النار لنحرق الزرع ونهدم البيت، لنبني ونزرع بأيدينا لا بأيديهم، فالموت للخانعين أهل الممالك الاثنتي عشرة قبل الولاة.. اللعنة عليهم لأنهم رضوا بالظلم فاستُحلت دماؤهم. لن يوجد على هذه الأرض بعدهم سوى الأقوياء والشجعان.



شاطئ البحر

ليلة احتضنها ضباب فزادها رهبة ووقارًا، آنستها رياح تحُف البحر حاملة أمواجًا تهدر بصوت لا يهدأ حتى يلامس الشاطئ، واقف أمامه علي ممسكًا بلجام الجمل الصامت لصمت من صَاحبه ثمانية أيام سفرًا ونَصَبًا. أخرج الحجر الأخضر من سيالته وأطلق لجام الجمل حرًا، وتركه خلفه وحاذى ماشيا على اليمين مراقبًا الحجر حتى ينطفئ، إشارة ليقف في البقعة التي سينتظر فيها القادم إليه من البحر. أنساه صوت هدير البحر كالسحر مراقبة الحجر. أفاقه صوت بشر:

ـ الملتفت لا يصل...

لم يحدد علي اتجاه الصوت فتلفت في كل الاتجاهات بحثًا

ضباب.. ضباب.. ضباب.. وبحر لا يُرى إلا طرفه. ظن أن وحدته هيأت له الصوت، فنظر إلى الحجر وقد خفت نوره، ثم تحرك وبعد خطوات سمع خلفه صوت أقدام تمشي مع خطاه. توقف فتوقفت الخطوات، فاستدار برهبة ناظرًا خلفه.. ضباب. أوجس خيفة ثم ابتعد رهبة واستدار للأمام فوجد ما وجد كما رآه في رؤياه. الثوب الممتزج بلونين، أبيض وأخضر، أطرافه تتطاير، عمامة كبيرة بلون السماء، عصاة شجرة لها رأس يقبض عليها بقوة، بها أسورة من فضة، وجه مشرّب بحمرة كسته ابتسامة تسر الناظرين فهدأ



روعه بالطمأنينة. تكلم صاحب الوجه الذي لا يكذب:

ـ من هنا البداية.. البداية التي تهت عنها من قبل سنين.

نظر علي بتساؤل فمد صاحب العصا طرفها نحو الرمل ورسم دائرة وأخرج منها خطوطًا تعرجت وتشعبت وتداخلت. سحب عصاه وقال:

ـ تهت فيها.. فعليك أن تخرج أولا من تيهك. بعدها كل الطرق ستستقيم وستصب كلها نحو بيتك.

نظر علي إلى الدائرة المحفورة في الرمل مليًا، وما كاد يرفع رأسه حتى وجد صاحب الوجه الطيب اختفى كأنه من الضباب أتى وفي الضباب تلاشى، فعاود النظر سريعًا لرسمة الدائرة فوجدها، فتأكد أن ما رآه ليس وهمًا. برهة ودبت فيه حماسة، تحرك بخطوات أسرع ناظرًا من وقت للآخر إلى الحجر حتى انطفأ. وقف يأخذ أنفاسه ناظرًا إلى البحر ثم سمع القادم من البحر يضرب بمجدافه على سطح الماء. ثم ظهرت رأس شعلة نيران من قلب ظلمة البحر، بعدها ظهر تحتها رجل يحملها. طويل القامة ضخم الجثمان. خلفه شخص يجدف نحو الشاطئ حتى استقر المركب أمام علي فقال حامل الشعلة:

ـ فلتركب.

لبرهة نظر علي ثم مشى في الماء ووثب داخل المركب، فشم رائحة السمك الملتصقة في أخشابه. رفع المجدف مجدافه وجلس حامل الشعلة مكانه وقال لعلي:

ـ اجلس وأمسك جيدًا بطرف المركب.

•

المُجدف أمسك بحبلٍ غليظ مربوط في طرف المركب الآخر وشده بحرفة مرة والثانية، وبعد الثالثة انسحب المركب بقوة في قلب البحر يشق الماء شقًا ويطير الرذاذ بقوة على وجه علي، الذي يفتح عينيه ويغمضهما يحاول أن يستكشف في قلب الضباب والظلام إلى أين يتجهان به، حتى هدأت حركة المركب وهدأ الماء تحته، فوجد حبل المركب ممدودًا نحو صندوق خشبي كبير فوق الصخرة، سمع علي صوت التروس بداخله تهدئ اصطكاها لفًا. بجواره رجل ممسك بيد حديدية يديرها يسحب بها المركب حتى أرساه وقال لعلي:

ـ اصعد للصخرة.

نظر إليه على بتساؤل

ـ اصعد.

بهدوء ترك علي المركب وهو يتقطر ماء. فوق الصخرة وجد أمامه جسرًا

من خشب بعده أرض الجزيرة. أمامه ممر على يمينه وشماله مشاعل نار رسمت له طريقًا في آخره منارة عالية. وقف علي أمام بابها العظيم. خرجت منه رائحة الخشب رطبة امتزجت برائحة البحر. الباب تحت منارة عالية عظيمة. أمسك حلقة الباب وطرق ثلاثًا دون رد، فدفع الباب فاستقوى دون فتح، فتحداه علي دفعًا فاصطك صوت الباب مُزمجرًا حتى استقر فتحًا، فدلف علي إلى المنارة بهدوء مستكشفًا. وجد أمامه سلمًا حجريًا دائريًا إلى أعلى، عند كل منعطف شعلة تتراقص أطراف نيرانها من هواء وجد منفذه من بابين، باب دخل منه علي وباب في قمته. وقف أمامه علي يلفحه هواء بطعم مياه مخلوط من العذب والمالح. باستكشاف خرج من باب المنارة. تطاير بسبب الهواء طرف ثوبه. يضرب الموج الصخر من تحته بقوة يسمعها حتى تتحطم. يستدير مشيًا في ترقب مع محيط المنارة، حتى وجد شخصًا يقف بظهره تحت الزجاج العاكس للمنارة ينظفها ويمسحها كالعازف، ثم أدار بؤرة الزجاج العاكس ناحية الشرق. عرف علي من هو فخطا نحوه ووقف عندما تكلم الدنف:

ـ من بُعد بإشارة من ضوء المنارة تنقذ سفينة.

يلتفت إليه الدنف:

ـ بإشارة من المنارة تنقذ نفسها السفينة من التحطم على الصخر.

يتقدم الدنف إليه خطوة:



ـ من فكر في المنارة بالتأكيد لم يأت بها من فراغ.

ثم وقف أمام علي:

ـ وبالتأكيد علم أن المنارة أنسب مكان لها الظلام.

فجأة انقلب وجه الدنف بحدة وسأل بقوة:

ـ لمَ اخترت أن تأتي إلى هنا؟!

ـ !!!

لا يجد علي ردًا على سؤاله، والدنف ذاته طلب منه أن يأتي، فسأل الدنف بغضب وهو يصيح في علي:

ـ قل لي.. ما الدافع الذي أتى بك هنا؟

تراجع علي بظهره، منعه حائط بشري من خلفه. ثلاثة ملثمين في خصرهم علقت السيوف. اشتد الدنف بالقول:

ـ انطق...

يعتصر علي بالداخل بحث عن إجابة حقيقية، فانطلق لسانه بتلجلج

ـ تائه بين الطرق.. تعبت.. يئست.. أبحث عن طريق أمشي فيه.. طريق...

صمت وبصر وهدأ:

ـ طريق لكل التائهين مثلي. طريق...

صمت وأخرج من جيبه الحجر الأخضر الذي انطفأ ومده نحو الدنف فأخذه منه، فقال علي:

ـ طريق لا ينطفئ نوره حتى بعد موتي.

فتقدم الدنف نحوه ناظرًا إلى أعماق عينيه:

ـ كيف لك أن تصنع ذلك وأنت تائه؟ كيف لك أن تفعل ذلك وأنت من غير طريق؟ كيف؟

نظر إليه علي باحثًا عن إجابة، فأشار الدنف للثلاثة ملثمين خلف علي، فقيدوه بأيديهم وحملوه نحو سور المنارة. قاومهم علي بشدة وصاح:

ـ ماذا تفعلون؟ اتركوني.

وبالفعل تركوه بإلقائه من فوق المنارة فطار في الهواء يصرخ حتى انكتم الصراخ تحت الماء غطسًا. أحاطته فقاقيع الماء، أغشت بصره؛ أين سطح الماء؟ تقلب جسده في الماء حتى اعتدل نحو السطح فضرب بيده سابحًا، وقبل أن يدفع بقدمه قبضت عليها أياد تكتفيًا وسحبته للأسفل، حتى تمكن منه أربعة رجال كانوا في انتظاره. شلوا حركته فقاوم فذهب ما ادخره من أنفاس في رئتيه. أنهاها عندما فتح فاه ذهولاً لسقوط جسم أمامه بقوة، ولما انقشعت فقاقيع الماء ظهر من فيها. الدنف يسبح نحوه حتى استقر الوجه أمام الوجه والعين أمام العين. عين تائهة وعين تنظر بقوة تسأل وتضغط دون كلام.

ـ أرني أطول نفس عندك.

علي يختنق.

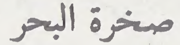
ـ أرني أين يختبئ التيه في أركان نفسك.

الدم يضغط وأغشيت عينا علي.

ـ كيف تهت وقد بذر فيك حسن رأس الغول بذرته؟

علي يغمض عينيه وقد خرجت فقاعة هواء من فمه. صعدت حتى وصلت إلى سطح البحر فتحررت تاركة من أطلقها تحت الماء.





صخرة البحر

مع ظهور الخيط الأبيض في السماء مُعلنًا عن صباح يحمل نسمات الهواء، ارتعش سطح الماء وتذبذب تحرُكًا حول صخرة بحجم مركب في قلب البحر. صخرة آمنت للبحر وتقلباته. كانت الصخرة من قبل جبلاً ذا هيبة تتحطم السفن عليه، فكيف له أن يأبه للموج الذي يتخبط فيه فيتناثر رذاذًا من بعد موج! فاغتر بنفسه، وكلما كانت تلامسه موجة يسخر منها بقهقهة تلاشت لما تفاجأ أن البحرَ بموجه هو من كان يضحك عليه، يتخبط فيها وينحل منه كل يوم نحلاً. يفتته بصبر تفتيتًا. حتى رعشة سطحه الهادئة بنسمات الصباح تدغدغه فاستسلم الصخر بعد ضعف للبحر حتى إنه لم يأبه بمن يستند عليه أو يجلس فوقه من البشر.

ـ ما الذي غيرك يا علي؟

هكذا سأل الدنف الجالس فوق الصخرة في قلب البحر، فنظر له علي دون رد وهو ممسك بالصخرة يرتعش نصف جسده الأعلى ونصفه الآخر استدفأ تحت الماء، فمد إليه الدنف يده مبتسمًا وجذبه حتى أجلسه بجواره يقطر ماءً فوق الصخرة.



ـ لا أدري من أين أبدأ.. أبدأ ببداية تيهي؟

قالها علي وهو ينظر في المطلق نحو أعماق البحر تحته، وتابع:

ـ أم أبدأ من بداية تغير ملامحي داخل مخبأ العياق؟ أم عندما أصبحت طبيب سنقر الكلبي الأفضل؟ أم لحظة ما جذبتني أمي من يدي وأنا طفل وأوقفتني على أعتاب مطبخ سنقر الكلبي العظيم؟ منه يخرج ما يجري في دمه وينبت جسده ويقوي عظامه، وقبلها يستقر في بطنه، والبطن بيت الداء. لم أفقه كل ذلك وأنا صغير أنظر إلى الحطب المشتعل نارًا، فوقه قدور كبيرة من الفخار والنحاس الكبيرة لامعة كالذهب لقوة ألسنة اللهب تحتها، فالتقت النار بالنحاس فأخرجا بخارًا برائحة ما يطبخ فيها، خضراوات بكل الألوان طازجة لامعة تقطع بسكاكين رفيعة حادة ذات مقابض، في أيادي طباخين يقطعون بحرفة على إيقاع فوق منضدة خشبية كبيرة، وسواطير مُشفرة في أيدي جزارين يذبحون عجولاً وأبقارًا وخرافًا وماعزًا، تتطاير رقابها ذبحًا أمام عيني وتتهاوى تحت الأقدام ثم تُكوم في ركن فوق بعضها شاخصة أعينها تتقاطر من رقابها الدماء، فاختلطت دماؤها وانسالت على الأرض بكثرة، يتم زخها في فتحات لمجرى بجلد ماعز مقلوب ذبح قبلها وأُكل من أيام. يقوم بزخها يد رجل طاعن في السن، انشغل بالنظر نحو طاسات كبيرة يتلاعب فيها سمك ود أن ينال جروه الجائع قطعة من لحمها الأبيض. فكيف له ألا يتمنى ذلك وأنا الغلام الصغير تمنيت لجوعي ما تمنى. للمرة الأولى أرى الأسماك بهذه الأحجام الكبيرة تتقلب في الزيت قليًا، وتخرج بمغارف

تُصفي زيتها تطقطق بفقاعات كست جلدها احمرارًا، ثم ترسو المغرفة بها فوق صينية فضية كبيرة، يقف حولها في حلقة خمسة رجال يحملونها، وقد امتلأت بالأرز الأبيض وفواكه البحر، على رأسها رجل آخر يحمل البهارات بألوانها ويرش بحرفة عطس أحد الحاملين منها مبعدًا وجهه دون إلقاء أي أحد بالرحمة من الله له، لانشغال الجميع غرقًا في إعداد غداء سنقر الكلبي في الوقت المحدد، كأن سنقر بطنه بحجم بطون المملكة كلها التي لا يخرج لأهلها إلا دخان برائحة الطعام من المداخن الأربع العظام، التي اسودت من كثرة ما سوي من طعام، فيزدادون جوعًا على جوع، وقد رأيت الجوع وكيف حاربه أبي وكيف وقف مع المظلومين من العياق والعيار والشطار، وأصبحوا قوة وانتصروا للجوعي، ولما شبعت بطون العيار والعياق والشطار انقلبوا على رأس الغول أبي وخانوه وقتلوه، فحق على المظلومين أن يظلموا، وحق على الظالمين أن ينعموا بما يشتهون، فاختارت أمي أن تأخذني وترميني تحت جناحهم حتى ولو أصبحت خادمة، بعد أن كانت زوجة فارس ترك بذرة أحب أن تنبت في أرض طيبة، ولكن هي أخذتها لترميها في أرض لم أعلم إلا بعد عُمرٍ كم هي خبيثة.

ـ أنت... ستقفين هكذا طوال اليوم؟

قالتها كبيرة الطباخين بوجهها الصارم وملابسها السوداء المجسمة على جسم رفيع، مثل صوتها الحاد وعينيها اللتين لا يتحرك فيهما إلا البؤبؤ مثل

الحرباء، نظرت إلى ما تحمل أمي. كانت بقجة فيها كل ما نملك. أشارت نحوي آمرة:

ـ أجلسي هذا الأقرع الذميم في أي ركن.

– كم كرهت هذه المرأة..

ثم أشارت نحو بقجة أمي التي حملت فيها كل ما نملك، واستطردت:

ـ وأعطيه بقجتك.

ثم أشارت إلى أكبر ركن في المطبخ امتلأ بتل من البصل الأحمر وتل أبيض من الثوم:

ـ ولتذهبي لتنظيف وتقطيع البصل وفرك الثوم.

سريعًا مالت أمي عليّ وقالت:

ـ علي.. احتضن هذه البقجة جيدًا ولا تسقطها في الأرض فتتلوث بالدماء أو الماء المنسكب على أرض المطبخ.

قالتها أمي، وبعدها أجلستني بالقرب منها والبعد الذي لا يسمح برائحة البصل بأن تصل إليّ، بينما امتلأت عيناها بالدمع بسببه. عند إمساك



كل بصلة كانت ترمقني بنظرة ليست لي ولكن لبقجة الملابس. البقجة التي حملت فيها سرها الذي تخطط له. وبما خرج من البقجة أصبحت أقرب الناس إلى سنقر الكلبي.

كان في البقجة الداء والدواء، الداء تضعه في خفاء بطعام سنقر الكبي.

اثنا عشر عامًا تعلمني ما لا أعلم في علم الأعشاب.. اثنا عشر عامًا تحضر لي نفسيتي لتضع في يدي الداء فأتحرك كالمسحور وأعالج ما حير الأطباء من داء سنقر الكلبي. هذا الفتى ذو التسعة عشر عامًا أصبح معجزة في علاج درك المملكة سنقر فقربني إليه، ولمَ لا وهو من يحافظ على أهم ما في الإنسان، صحة وعافية الجسد، فأصبحت ملازمًا له من سن التاسعة عشرة إلى السابعة والعشرين حتى في اجتماعات حاشيته، فلمَ لا يأتمنني على أسرار البلاد وهو قد ائتمنني على حياته.

حتى جاء اليوم الذي شعرت فيه كم أنا غريب في عالم القصر ومن فيه حتى أمي. كان يوم الحاشية يدلي كل واحد بدلوه الذي لا يملأ إلا بئر سنقر.

كعادتي كنت واقفًا في ركن جناح اجتماع الحاشية خلف سنقر. قاعة بيضاوية سقفها عال تحته نوافذ استطالت عجبًا وتموج زجاجه ألوانا ورسمًا، حجب الرؤية بالخارج ولكن لم يحجب ضوء غروب يوم شمس فرحت أنها ستذهب من فوق قصر أهله ظالمون. أمام كل نافذة انتصبت



الأعمدة تحرس طاولة الحاشية وعلى رأسهم سنقر الكلبي بلون لباسه المحبب الأسود، يلمع كريش غراب مُتأنق، على يمنه (كبير جماعة الذعر) وشمالة (كبير جماعة البصاصين)، حولهم عمائم مختلفة تعلن عن أصحابها، يتطاولون في بنيانها بعضهم لبعضٍ ند. عمامة ضخمة بألوانٍ تضفرت من أغلى أنواع الأقمشة في العالم لرأس مُلئ طمعًا (شهبندر التجار). أحاطت جسمه عباءة حمراء قاتمة من نسيج تمت دباغته بأيدي مئة عامل في الهند، وأرسلت معها هدية حنة حمراء أعطاها رشوة لمن يجلس أمامه (قاضي القضاة) الذي خضب بها بياض لحيته التي أبت أن تكتمل فوق صدغين نحيلين متناثرة أطرافها حمراء هشة كشهوته الجنسية التي تستثار من أي أنثى؛ يسيل لعابه منها ويطلق كلمته عند استثارة شهوته بقوله (حلاوة) فأصبح لقبه يُسخر منه دائمًا (كبير الطبالين) الواضع يديه فوق المنضدة يضرب بإبهامه توترًا؛ هذه عادته لا يهدأ إلا بعد أن يأتي بخبر يقلب به المملكة، أو إشاعة ينشرها فتذعر الناس أو يطبل في ليلة أنس على رقص جسم يتموج دون القدرة على لمسه، لعدم قدرته على فعل ما يفعله الرجال. فحقد على كل الرجال القادرين على فض شهوتهم حلالاً وحرامًا فيضرب على الطبل غيظًا.

ـ سأبدأ بكبير السقايين اليوم، فالماء أهم شيء للبشر.

بعد أن قالها سنقر استدار ونظر لي



ـ قال لي علي الطبيب ذات مرة أن سبعين في المئة من جسم الإنسان ماء

ثم اعتدل لهم وأردف:

ـ وأظن أننا يجب علينا أن نخفض هذه النسبة في أجسام أهل المملكة لئلا يغرقوا في أنفسهم

ضحك سنقر فضحك الجميع، وابتسمت مجاملاً حتى لا أكون خارج سربهم. هدأ الضحك شيئًا فشيئًا حتى تكلم السقا.

ـ لأجل ذلك خفضت في الآونة الأخيرة حصة الماء سيدي سنقر.

السقا هنا لا يموت، بل هو من يفعل، يتربع كبير السقايين على رأس رجال أقوياء يحملون أرطالاً من الماء فوق ظهورهم. تم اختبارهم واختيارهم وتدريبهم بعناية وإعطاء كل واحد فيهم علامة من حديد عليها رقم، تعلق في رقابهم. إذا لم يكونوا سقايين لأصبحوا جنودًا يحاربون بضراوة، ولكن بقوتهم تمت هزيمتهم نفسيا. لِمَ لا وهم يحملون على ظهورهم سرًا من أسرار الحياة دون السماح لأحد منهم أن يتجرع ملء فمه منه وإلا سيتم إقصاؤه وسجنه. تم ترويضهم جيدًا. كبيرهم رجل كالماء المالح لا يسد ظمأ العطشى فأصبح مقربًا.

ـ قرب السقايين سنحتاج لترقيعها لعدم إهدار الماء على الأرض.



كموجة ضعيفة تلامس صخرة، طلب السقا طلبه من سنقر، فصدت الصخرة الموجة بحزم.

ـ الهدر يتم خصمه من حصص الأهالي.

ـ هذا ما فعلت.

ـ وافعل ذلك إلى أن يتم ترقيع قِرَب الماعز.

تحاورا اقتضابًا. سنقر يصد وكبير السقايين يرد كموج ضعيف يأخذ من الشط بعض الرمال التي تعلم أنها ستتقلب في أعماق المياه وسيأتي يوم وتعود إلى البر، فتركت الرمال نفسها راضية. تعلم أن عمرها أطول من عمر البحر. تعلم جيدًا أن لا أحد يشرب حبات الرمل.

أشار سنقر برقبته نحو شهبندر التجار فتكلم:

ـ السنة الجديدة على الأبواب، زيادة درهمين ضريبة على البائع والمشتري في الأسواق لا يضر.

أذكاهم شهبندر التجار؛ يعلم كيف يختصر كلامه بما يرضي سنقر الذي أومأ بالإيجاب دون تفكير مبتسما، ثم تحول إلى قاضي القضاة الذي أذهب ابتسامة سنقر عند رؤيته لوجهه؛ عينا قاضي القضاة احمرتا سهرًا تتهاوى



جفونه، يقاومها تمنعًا، لا يفكر قاضي القضاة إلا في قيلولة طويلة بعد هذا الاجتماع، انتبه لتوه إلى أن سيده سنقر ينظر في وجه الفاضح بأعماله التي يعلمها سنقر جيدًا، فقال:

ـ ألا تريد أن تهدأ قليلاً على نفسك يا قاضي القضاة؟ ليلة واحدة، فقط لترتاح.

ـ تظن بي السوء سيدي سنقر.

قالها القاضي ضعفًا ومسكنة مكبًا وجهه حياءً، ثم أردف:

ـ ما يتعبني الناس وقضاياهم التي تزداد يوم بعد يوم.. الحُكم بين الناس مسؤولية ترهق الجبال، لذلك اقترح أن يساعدني اثنان من القضاة.

قام سنقر في حدة

ـ ومن هما يا حلاااوة؟

كتم كبير الطبالين ضحكة شماتة وابتسم جميع أفراد الحاشية

ـ أنا.. أأأأأأ



توتر القاضي حلاوة ثم استجمع شتات طلبه:

- لا تقلق سيدي.. اثنان من القضاة تربيتي.. تربيتي بنفسي.

نظر إليه سنقر مفكرًا، ثم جلس بهدوء وأعطى قراره:

- فليكن.. ولكن أريد أن أراهما بنفسي.

لا يهم إذا كان القاضيان مثل قاضي القضاة حلاوة، هم متعبون ولكن الأهم لا يفكرون إلا في شهواتهم؛ استراتيجية أتقنها سُنقر في توزيع المناصب بين طامع وغبي وبخيل، والمطبلاتي الذي توقف عن القرع بإبهامه الغليظ المتصل بكف تكدس لحما فوق الطاولة، لمها بين فخذيه عندما نظر سنقر إليه:

- ما بك يا كبير الطبالين؟ لا أسمع لك في المملكة ضرب طَبل ولا صوتًا يجهر باسمي.

قام المطبلاتي من فوق كرسيه ليبدأ قرعه:

- قل لي يا درك البلاد...

تلوى بيديه ورقبته كثعبان يرقص على ناي مربيه:



ـ قل ما تريده وصوتي وصوت الطبالين سيزف الأخبار في أركان أرضك وسمائها.. قل لي وأنا أنشد فيها مُغردًا بقول كلام محبوك حبكًا.. ولكن أود أن أبوح لك بما أفكر فيه وكنت أعتقد أنك تعلم ذلك لعشرتي بك، وهذا غباء مني.

أنهى كلامه بابتسامة أظهرت أسنانا رفيعة اصفرت من دخان أحجار فحم ملتهبة فوقها ما يذهب العقل، يلتهمها بشهيق فتتوهج النيران على الفحم، ويزفرها دخانًا أزرق حبسه داخل غرفته حتى غطى رؤيته فلا يرى كفيه. أمسك كبير الطبالين بإبهامه وسبابته طرف شاربه الرفيع المتأنق وبرم طرفه.

ـ سيدي.. إني أعلم متى أقرع الطبل ومتى أتوقف وأين تكمن إثارة الناس بخبرٍ.. كيف أذعرهم بإشاعة وكيف أرهبهم منك وأرغبهم فيك.. ومتى أُراقص مشاعرهم وأتحسس ثنايا أفكارهم وأغازلها.

تكلم بثقة ووزع كلامه بإيقاع محترف على مسامع الجميع فأنصتوا لباقي كلامه:

ـ الطبالون أبعدتهم الفترة الماضية لسبب مهم.. ويا سيدي ستتفاجأ بما يحضّر للغد ويبث في آذان أهل المملكة كلهم.



صمت للإثارة.. همّ سنقر بالكلام فلحقه كبير الطبالين بلطف خافضًا صوته فاركًا كفيه:

- سيدي أريد أن أسرّه إليك على انفراد.

ثم نظر كبير الطبالين إلى الجميع وأردف:

- عذرًا أيها الأصدقاء.. لا أريد أن تفقدوا عنصر المفاجأة عند الإذعان بالخبر عبر الطبالين.

ثم نظر إلى سنقر منتظرًا الإجابة، فأجاب:

- إني أوافق أن تقول لي ما تريد على انفراد.. فلتأت معي.

ثم التف سنقر مرة أخرى ونظر إليّ وقال:

- علي الطبيب سيقوم بدهان جسمي بهذا الدهان السحري الذي يصنعه لي، ولكن اخلع عنك نعلك عند الدخول يا طبال الطبالين.

انحنى كبير الطبالين لسُنقر ممتنًا وجلس على كرسيه ومسح بعينه الجميع بافتخار، ورمق قاضي القضاة بنظرة أطالها ورفع يديه أمامه فوق الطاولة وشبك أصابعه بقوة، فهو اليوم أفضل منه حتى إذا كان ليس له القدرة على شهوة الجنس مثله، فله القدرة بقرع طباله على خداع بني جنسه.



- ثقل القلب وحملت روحي بما ليس في طبيعتها من خداع وكذب وطمع وظلم وفساد، بذريعة أبحث عنها لأجل الهروب من قلب هذا العالم الذي لا أنتمي إليه. خداع وطمع يتراقص في الأعين، وخوف وجبن وتشتت وتيه في أعين الخادمين والفقراء والمغلوبين على أمرهم.. الحقيقون لا يتحملون هذا، حتى الملائكة إذا عاشت في الأرض لن تتحمل كل هذا، أخاف أن أستيقظ ذات صباح وأصبح غير مبالٍ أعيش كحياتهم.. أمي كيف أتركها؟ أمي التي نظرتُ في حزن عينيها وأنا صغير فطبعت خوفها في قلبي وأصبحت أخاف لخوفها لا لخوفي.. لا أريد أن أعيد عليها هذا الحزن الذي غزا قلبها وتربع على عرشه.. ولكني لم أتحمل.

ـ ما الذي تقوله؟

قالتها أمي وهي مذعورة، أغلقت باب غرفتي بقوة، واندفعت نحوي بخطوات غاضبة، وقالت بحدة وقد ضاقت ذرعًا من تكرار شكواي لها:

ـ تغيب تغيب وتأتي إليّ بنفس غيظ كلامك.. تريد أن تذهب من هنا؟ أنت لا تعلم شيئًا، كل شبر في الممالك الاثنتي عشرة لا يفرق عن هنا في أي شيء، لا مهرب.. أنت تعيش هنا حياة رغيدة ورفاهية وسلطة، ستندم كل الندم إذا خرجت من هذا القصر، ألا تشعر بالفضل لما أنت فيه ومن تسبب فيه؟ أمك.. عليك أن تكف عن ذلك.



اختتمت كلامها صائحة وتركتني مشتعلة، فتحت الباب بهدوء، وقبل أن تخرج التفتت إليّ بهم وخوف ودمع، وقالت كمن يكتم فورة دمه:

- أنت هنا يا طبيب علي آمن.

فقلت لها الحق:

- إني هنا يا أمي أموت.. وتعلمين جيدًا أنني لست بطبيب.

نظرت إليّ نظرتها المعتادة التي تغزوني كغازي البلاد قتلاً «هذه نوبته التي تأتي إليه من وقت إلى الآخر». ثم أغلقت الباب خلفها عند الظهيرة، وفي الليل فتحته وهربت عندًا وانقلابًا وتشتتًا من مملكة إلى مملكة، حتى تخطيت سبع ممالك. صدقت أمي؛ الولاة والحكام كلهم سنقر الكلبي، حتى إني فكرت في الرجوع ولكن كان بداخلي أمل. لم تزل هناك خمس من الممالك، فقررت في الصباح أن ألملم رحالي ولكن أعدتها مرة أخرى لما التقيت بعواد.. هذا الشاب الذي يحمل ما أحمل من تغير حياته. كان آتيًا مما أردت الذهاب إليه من الممالك، فأفضى لي بما يحدث فيها، وقتل أمل الترحال إليها. حتى أتى لي في صباح يوم وقال لي:

- جبل الموت هو ملجأنا.

نظرت إليه بتساؤل، فأردف:



ـ جبل الموت يجتمع فيه كل الناقمين.. كل من هم ضد الظلم والقهر.. جبل الموت يتجمع فيه من لا يريدون العيش في وهم الحياة، وإني أعلم طريقًا إليه.

قالها عواد بحماسة ولمعة في عينيه اشتعلت بقوة ضد ما يحدث في الممالك الاثنتي عشرة. عواد هذا الذي وجدت فيه صُحبة التيه فتعكزنا على بعضنا حتى وصلنا إلى جبل الموت.. الخدعة الكبرى.

* * *

ـ لو كنت أعلم الغيب ما كنت وضعتك في حضن أمك!

قالها الدنف ثم صمت برهة وفكر ثم استدرك:

ـ أو لعل ما قامت به أمك من إخفائك تحت جناح سنقر هو أفضل ما حدث لك.

وابتسم. علم علي مغزى الابتسامة التي شعّ منها ما يجول في خاطر الدنف. لا أحد يدرك في حياته مِنَح المِحَن.

ـ فاطمة المسكينة...

قالها الدنف فرَهُف قلب علي عند سماعه اسم أمه، وصب في فؤاده



زخات القلق عليها ولوم النفس على فراقها، ثم استطرد الدنف:

- كفرت بكل ما آمنت به.. كل شجاعتها قتلتها ودفنتها بداخلها مع موت أبيك، وصورت لك الأكاذيب حقائق، وأخفت عنك أهم حقيقة، بأن جعلتك لا تعلم قاتل أبيك الحقيقي، بل جعلتك حارسًا عليه من أمراضه تقيه منها ما استطعت.

علي ينظر إليه يريد إيضاحًا أكثر لما يجول فيه من شكوك. وبعد صمت لبرهة قال الدنف:

- العُيار وعلى رأسهم عمر العيار، والعياق وعلى رأسهم حمزة البلهلوان، والشطار وعلى رأسهم أصفان صاحب الجان، ليسوا غادرين ولا خونة ولم يكن لهم يد في قتل أبيك حسن، بل بأيديهم دفنوه. في نفس اللحظة التي قُتل فيها أبوك، هُجم عليهم من جماعة الذعر وقُتلوا وشُردوا وطوردوا، نجا بعضهم وهرب وأنا معهم.

وقف الدنف فوق الصخرة ومد يده لعلي ليقف ففعل

- قبل الهروب ذهبنا إلى بيت حسن وأخذنا جثمان أبيك ودفناه.. دفناه دون رأس.. اللحظة التي التقطتك فيها في النفق كان قاتله أمام البيت ومعه جنده.. الذي قتل أبوك...



ثم صمت برهة ونظر لعلي وأفصح:

ـ سنقر الكلبي.

لم تطرف عينا علي، لم تعط ملامحه للدنف أي إشارة. كل ما يحدث بداخله.. اضطرب وعيه وتحجر الدم في الشرايين. قلبه بداخله يقرع بالغضب فيهز جسمه هزًا. ومضات تتحرك في ذاكرته من عالم ماضيه وترتسم في خياله بسنين عمر لقنته فيه أمه ما أرادت كذبًا. عقله تجول فيه أسئلة تتلاطم كالأمواج العاتية.

– كيف تحجر قلبها؟

– كيف صنعت من ابنها طبيبًا لقاتل زوجها؟!

– كيف وقد كان بمقدورها أن تنهي على شر الكلبي وظلمه وتنتقم لقاتل زوجها.. حبيبها.. من أنجبت منه وحيدها؟

– كيف ـ أجبني ـ لامرأة أن تفعل ذلك؟

تشقق علي بأسئلته كالحجر، ثم صاح في وجه الدنف:

ـ أنت كاذب.

نظر الدنف بهدوء لعيني علي اللتين امتلأتا بالدمع فاحتجبت رؤيته،



فضرب بجفونه دون إرادة فسقط الدمع ورأى وجه الذي لا يكذب.. فقال له الدنف بهدوء:

- يا بني أنت تعلم جيدًا أني لست بكاذب.

تهاوى علي فوق الصخرة وجثا على ركبتيه باكيًا كما لم يبك وهو طفل؛ حُبس لسنين، بداية من سقوطه في النفق، وقوفه أمام المرآة، تغير ملامحه من طفل لطفل لا يعلمه، كرهه، ويحاول أن يستعيده الآن. لما وجد الدنف هدوء بركان علي حاول أن يهدئه أكثر بقول حق:

- أمك فاطمة لم يكن بيدها حيلة إلا ذلك، وكل ما فعلته كان يأسًا.. وكيف لا وهي عاشرت أشجع الرجال؟ فبموته وذهابه أخذ معه شجاعتها وقوتها وما آمنت به طوال عمرها، حمّلت نفسها فوق طاقتها لأجلك.. كل ذلك لأجلك.. وضعتك تحت جناح الشر لئلا ينالك ما نال أباك.. قربتك حتى أعمتك به خوفًا عليك.

مسح علي عينيه وأخذ أنفاسه وغلّب فيه قلب الابن على الأم ورق لحالها وما عانته وتعانيه إلى الآن، وقال وهو ينظر إلى مد البحر أمامه:

- متي هدأ قلبها منذ قتل زوجها؟! متى توقفت عن الخوف على ابنها؟ ما الذي كانت تحادث به نفسها في وحدتها؟ أمي.. عانت كثيرا بل إنها تعاني إلى الآن.. كيف تركتها وحيدة؟



انتفض علي واقفًا وقد قرر:

ـ سأعود إلى القصر.. سأعود لأجل أمي وسأجد حلاً لمعاناتها.. لا داعي لأن تخاف عليّ بعد الآن.. كفاها خوفًا.. سآخذها بعيدًا حتى لو عشت أنا وهي دون أحد.

أمسك الدنف بقوة كتف علي:

ـ بالطبع ستعود.. ولكن في الوقت المناسب.

نظر علي للدنف بتساؤل فأجاب بحماسة:

ـ يجب أن تستعيد أمك فاطمة زوجة حسن، وليس هذه المرأة التي يئست وتاهت ولم تعد تؤمن بما كانت تؤمن به في الماضي.. وبعودة أمك تستعيد معها ما أُخذ جبرًا وظلمًا.

ثم صمت وأنزل يده من فوق كتف علي.. وقال بهمة:

ـ مملكة سنقر الكلبي هي أقوى مملكة؛ إذا تم التخلص منه سنقود باقي الممالك متخلصين من الظلمة والفسادين.. أنت رأيت بعينك مدى الظلم داخل القصر يا علي.. أنت تعلم أسرارًا لا أحد يعلمها غيرك.. فكيف لا تستخدم ذلك ضد عدوك؟



قال علي بحماسة:

- وكيف ذلك؟

- كل شيء في وقته.. الآن فقط كل المطلوب أن نبدأ تدريبك وتجهيزك للمهمة.

فسأل عليّ استفهامًا:

- المهمة؟!

فرد الدنف بهدوء وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة:

- كما قلت لك كل شيء في وقته.. كل المطلوب أن تثق بي.

طأطأ علي رأسه ثم ذهب بجسمه نحو البحر وصارحه:

- لن أكذب عليك.. من الصعب أن أثق في أحد.

- وما الذي أتى بك إلى هنا؟

- رائحتك لم أنسها.. رائحة الحضن الذي التقطني وأنا طفل مذعور.. شممتها عند بركة الطين قبل أن أفتح عيني، وهذا سر وقوفي هنا الآن.

ابتسم الدنف وهو يقول:



ـ لا أحتاج ثقتك الآن.

وقبل أن تذهب ابتسامة الدنف ارتعش سطح الماء لحركة مركب تتقدم فوقه رجال ثلاثة.. أصفان صاحب الجان كبير العياق، وحمزة البهلوان كبير الشطار، وعمر كبير العيار، خلفهم تشرق الشمس فلم توضح لعلي رؤية من هم، حتى وقف المركب عند الصخرة فعرفهم، وكيف لا وهم من كانوا يلعبون معه أمام ساحة بيت أبيه؟ مكان ما قتل! فتحفز عند رؤيتهم بداخله الغضب لما وقر في عقله منهم بأنهم قتلة، ولكن سريعًا ما محي بمد حمزة يده إلى علي مبتسمًا، فنظر علي لليَد التي ساعدت علي الطفل المحب في صناعة قلادة زبيدة أحب الناس إلى قلبه. قال حمزة بصوته الأجش:

ـ اركب معنا يا علي.

فمد علي يده إليه.



متاهة الصخور

لُب جوف الأرض معادن تلتهب نارًا، تسبح حرة في عالمها الذي أحبته واستقرت فيه المعادن حبًا في بعضها حتى انصهرت تجانسًا، إلى أن تمرد منهم معدن أحب أن يخرج من جوف الأرض بعيدًا عن الجميع مُتفردًا. أحاطه بعض من المعادن الأخرى فتمردوا وأصبحوا قوة فانشطرت المعادن لفريقين، تصارعا حتى ضاقت بهم الأرض وطردتهما من جوفها فزفرتهما نفخًا ببركان ونفيًا، فتعرجوا تائهين في أنحاء سطح الأرض تشتتًا، فتغيرت حقيقتهم ومنهم من أصبح صخرًا ومنهم من تحول لحجر، ومنهم من شب جبلاً فثبتوا في الأرض بعد حركة. والمعدن الذي قاد ذلك وتسبب في الفُرقة، صنع بندمه صخورًا متجاورة عالية ومنخفضة كأسنام جمال حمر عملاقة تعرجت فيها الطرق، فسماها البشر بمتاهة الصخور، ولن تُخرج من متاهتها إلا من صنع أثر الخروج.

ـ العالم من حولك صنع تيهك.. حتى أقرب الناس إليك دفنوك فيها.. هذا أول اختبار.. هذه متاهة الصخور أمامك.. أرني كيف ستخرج منها.

قالها الدنف، بعدها التف نحو علي الناظر للصخور المتاركمة المتراكبة فوق بعضها، لامعة بحمرتها من أشعة الشمس، فشعر علي بحرراتها تنعكس عليه، تُخرج له ألسنتها بسراب أعلاها يتراقص.

ـ لن أدخلها.. بالطبع لا سبيل للخروج منها.



وسوست نفس علي له قولاً فمال لرأيها، ومال التفاتًا بكله نحوه الدنف، فبدا له ما في وجه علي ما أخفى كُرها للدخول في قلب الصخور، فبادره الدنف كلامًا:

- سنين لم تختار أي شيء.. رُبيت نفسك على الخنوع والملامة.

علي حاول سترًا أن يخفي ما بدا للدنف بملامح وجه غاضب نظر به ليثبت له العكس، فضغط الدنف على نفس علي أكثر:

- لإصلاح ما فسد بنفوسنا يجب أولا أن نعترف بها.. انظر إلى متاهة الصخور التي تظن أنها ستبتلعك وأنت على البر.. إذا ظننت ذلك فقد انتصرت عليك قبل أن تدخلها، لا سبيل لك إلا أن تدخل.. مجرد دخولك انتصار عليها.. ولتعلم أن ما تراه في الصخور ما هو إلا انعكاس ما فيك، فلا تقف أمامها هكذا متصلبًا كالصخر.

بهدوء انسحب الدنف بخطوات تخشخش حصى الأرض من تحت نعله، حتى ابتعد صوت الخطوات عن سمع علي الناظر لمدخل متاهة الصخور، حتى اختار وتقدم ووقف على أعتاب المتاهة.



غرفة الأسلحة

جهة البحر المالح بُني بيت السلاح. كبير تبطنت الجدران الأربع بالخشب المُفرغ ورصت فوقه كل أنواع الأسلحة رصًا. عند دخول علي من باب بيت السلاح وقف منبهرًا غارقًا فيه لوسعه، فوقه سقف عال مقبب، أمام مد بصره اتساع وطول كساحة قتال، عن يمنه جدار نائمة في أغماده السيوف والخناجر، وعن يساره جدار علقت عليه سهام ورماح ونبال وكرابيج سود، ومن خلفه غُطي ما حول الباب بدروع منقوشة، نقشت صدورها الحديدية وتقعرت بواطنها، مُنعكس عليها تراقص ألسنة النيران المعلقة في المشاعل، لتضيء لمحارب شعرت أنه لم يمسك سلاحًا من قبل.

ـ أعتقد أن الأسلحة الحادة التي رأيتها في حياتك هي أدوات سكاكين مطبخ سُنقر الكلبي!

قالها عمر العيار ثم ضحك سخرية ليستفز علي، ثم تحرك من الظلام ضاربًا بحذائه الأرضية الخشبية، حتى خرج إلى دائرة نور المشاعل في كامل ملابس الحرب، في يده سيفه وفي يده الأخرى غليونه المتوهج لشهيق أخذه بقوه وزفير أطلقه باستهتار فأغاظ علي وقال آمرًا:

ـ اختر لك سلاحًا.

ثم وضع العيار سيفه في غمده وذهب إلى الحائط وأخذ من فوقه سوطًا



ذا شرائح حديدية مرنة حادة، ضرب العيار به في الهواء فجللجلت أطرافه صليلاً، وقال بجدية:

ـ صوت السلاح يقتل عدوك قبل طعنه به.

نظر إليه علي دون اهتمام لغيظه من الواثق من نفسه زيادة عن الحد، ثم تحرك نحو حائط السيوف ودون أن ينظر سحب سيفًا ورمى باستهتار غمده على الأرض.. وقال:

ـ في المعارك لن أفكر في نفسية عدوي.

فابتسم العيار سخرية

ـ لذلك أمثالك يُهزمون!

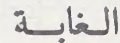
فهجم عليه علي رافعًا السيف غيظًا

فسخر العيار منه أكثر:

ـ خطواتك لا بأس بها كحامل سيف جديد!

نزل علي بالسيف بقوة على العيار، فأخرج الأخير سيفه أسرع وصد ضربة علي فأخرج السيفان شررًا.





الـغابــة

من جهة البحر العذب فوق جزيرة المنارة تنامت وتداخلت الأشجار بأغصانها وافرة الأوراق، خضراء حتى إن أشعة الشمس لا تجد لها منفذًا إلا بضرب الهواء أوراق شجرها، فيدخل شعاع يتلاعب فوق جبهة علي الواقف في قلب الغابة وقد ابتعلته. ترقب حوله حتى صدر عن يمينه صوت خطوات تجري. نظر فلم يجد إلا أثر الجري في تحرك الأحراش، ثم جاء صوت أصفان صاحب الجان عن شماله:

- في الغابة ستتعلم السرعة وكيف تختفي من عدوك وهو أمامك.

تقدم علي نحو الصوت الآتي من قلب الأحراش، وأزاح بيده ما يكشف الرؤية له، لم يجد إلا صُحبة من ورد أسود ذي أوراق غليظة.

ثم أتى إليه الصوت من خلفه:

- ثلاثة أيام لك في الغابة ابحث فيها عن قارورة الزيبق.

أتى صوت أصفان من أعلى، فطاف علي ببصره في قلب فروع الأشجار دون جدوى، حتى حذره أصفان:

ـ لا تلمس هذا الورد الأسود، فسوف يسقطك تخديرا ونومًا الثلاثة أيام.

نظر علي إلى مصدر الصوت في قلب فروع الشجر، ولكن أصفان صاحب الجان كان قد اختفى وترك ورق الشجر من حركته يتساقط فوق علي.





غرفة المرايا

غرفة دائرية استادرت جدرانها بمرايا استطالت حد السقف. وقف وفتح بابها ودلف إلى داخلها علي. عندها أغلق الباب خلفه فكان الباب مُبطنًا هو الآخر بمرآة. نظر إلى نفسه في مرآة الباب ثم خلفه ثم حوله، حتى صاح حمزة فيه ساخرًا:

ـ هل ستبحث عن أيهم الأجمل فيك؟

بعدها قرر علي الرجوع من الباب الذي دخل منه، وقبل أن يصل اصطكت تروس شعر بهزتها تحت قدميه، ثم دار حائط المريا في سرعة. نظر فدار هو أمام نفسه حتى تداخل في بعضه، أصابه دوار فأغمض عينيه، فصاح حمزة:

ـ الإلهاء يأتي قبل التيه.. إذا تعلمت كيف تركز في ما تريده لن يلهيك أي شيء من حولك.

صوت التروس يذهب وشيئًا فشيئًا توقفت جدار المرايا عن الدوران. فتح عينه على وما كاد يفعل حتى دارت الأرض من تحته، ففقد توزانه وجثا على الأرض بركبتيه فقال حمزة:

ـ اختر.. إما تكون محور الناس وإما يكون الناس محورك.



ثم تحركت الجدران بالاستدارة عكس دوران الأرض تحته.

ـ أنت عشت في عالم صور لك أن كل شيء من حولك حقيقي كما أقنعوك به.. الأمر بسيط!

ثم أردف حمزة ناصحًا:

ـ أي أحد يحاول أن يقنعك بكل قوته أنه على الحق اعلم أنه أكثر بُعدًا عنه.. أتعلم لماذا يا علي؟

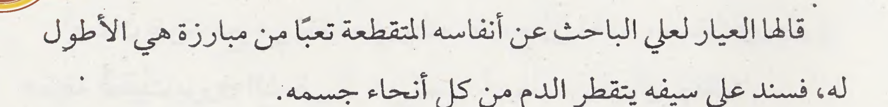
توقفت الأرض تحت علي عن الدوران، فأجاب حمزة:

ـ لأن الحق يظهر وحده دون إقناع.

* * *

داخل غرفة الأسلحة. المعركة بالسيف دائرة. سيف يُجرح في كل جسم علي، في الذراع والظهر والكتف والبطن، بحرفة وخفة، وسيف علي يتهاوى في الهواء تارة ويصد بسيف العيار تارة أخرى، ثم يهوي تعبًا، فقال صاحب السيف الجارح:

ـ قلت لك من قبل.. إنك لا تعلم أي شيء عن الأسلحة إلا سكاكين مطبخ سنقر الكلبي.



قالها العيار لعلي الباحث عن أنفاسه المتقطعة تعبًا من مبارزة هي الأطول له، فسند على سيفه يتقطر الدم من كل أنحاء جسمه.

ـ تعبت؟

سأل العيار

فوقف علي مُنهكًا ورفع سيفه بصعوبة وهجم بعنف فجرحه العيار بحرفة في ركبته، فسقط علي أرضًا

* * *

داخل الغابة يجري علي بحثًا عن الزيبق يتبعه أصفان من مكان خفي.

ـ الحياة تشبه ورقة الشجر، تسقط من فوق فرعها، تصفر، تذبل، تصبح حطامًا.

بحبل مربوط في شجرة نزل أصفان أمام علي فجأة، فتوقف علي وهو متعرق ينهج، فتح له أصفان يده بورقة شجرة اصفرت ثم قبض عليها فتحطمت وقال:

ـ نهايتها مثل ورقة الشجرة، وهذا لا يهم لأنه أمر طبيعي.. الأهم ألا تذبل وتموت، قبل إتمام مهمتك.

أصفان بقوة دفع علي بقدمه في بطنه، فترنح إلى الخلف فسقط في حفرة عميقة غُطيت بورق الشجر. ترجل نحوه أصفان ونظر إليه وقال:

- حتى لو تم إسقاطك لا عذر لك.. أنهِ مهمتك وائت لي بالزيبق.

وتركه أصفان واختفى.

علي وثب مرة وراء مرة فوق جدران الحفرة الطينية اللزجة. بحث حوله عن أي شيء يساعده في الحفرة لم يجد، حتى تملكه اليأس وجلس مكانه في الحفرة.

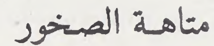
* * *

داخل غرفة المرايا شيئًا فشيئًا انسحبت المرايا إلى الوراء فاتسعت من حول علي الغرفة التي امتلأت بدخان أبيض يُضخ بقوة حتى غطاه فظل مكانه دون رؤية حتى سمع زمجرة سهام تُشد في نبال من حوله، فانتفضت حواسه وما كاد يستوعب ما يحدق به حتى أطلقت السهام نحوه وأصابت بحرفة أنحاء جسمه جرحًا.

- يجب ألا تعتمد على الرؤية مع عدوك، لأنه لن يريك إلا ما أراد.

صاح بها حمزة البهلوان فاختلطت الحروف مع الجروح في جسم علي تخط فيه خطًا.





متاهة الصخور

تعمق علي في قلب متاهة الصخور باحثًا يتحرك ويترقب، كل الصخور تشابهت، كل الطرق استمالت وتعرجت، تعامدت الشمس فوقه فبخت الصخور حرارتها تلفحه، تعرق حد العطش يبحث عن مخرج دون أمل.. حتى سمع صوت نحل فتتبع أثر الصوت حتى وقف أمام جدار صخرة يخرج صوت طنين النحل منها. باستغراب نظر إلى الصخرة بحثًا عن النحل، وفجأة انشقت أمام وجه الصخرة، وكجيش خرج النحل في وجه علي فأبعده وجرى وهو خلفه يلحقه يلدغه في أنحاء جسمه، سقط على الأرض، يبعده يضرب بيديه وقدميه. أحاطه حتى صرخ بأعلى صوته:

- أخرجوني من هنا!



البحر...

تسللت شمس الصباح ملامسة سطح بحر يتلألأ ذهبًا، منعكسًا على عين بنية فوقها جبهة فتاة خمرية فزادها حُسنًا. ملثمة بالكتان الأبيض يتطاير طرفه حول رقبتها كأجنحة الطير، هبطت لما رسا المركب عند صخرة المنارة يقبع فوقه أحمد الدنف. لما رأته أنزلت لثامها وأفصحت عن ابتسامة كإشارقة الصباح فرحًا. فكت يدها الصغيرة الممسكة بحبل الشراع المضفر، واليد الأخرى مدتها نحو الدنف الذي أمسك بها حتى لامست قدمها صخرة المنارة، ولما استقرت فوقها بش الدنف ورحب بها:

ـ حمدًا لله على سلامتك يا زبيدة

ـ الله يسلمك يا سيدي.. شعرت في الطريق أن هناك من يتبعني!

نظر إليها الدنف مفكرًا وأومأ قبل أن يتكلم:

ـ المُكلف بحراستك يبدو أنه اقترب حد الشعور به.. أخطأ.. سأقوم بتغييره.

تراخت ملامحها هدوءًا وتحرك الدنف فتبعته حتى صعدا فوق المنارة. وجدت في انتظارها منضدة خشبية تراصت فوقها كل خيرات الجزيرة. سمك طري أبيض وعسل من نحل خرج من بطونها من كل أنواع الرحيق



الطازج، وفاكهة لامعة قطفت في الصباح الباكر، وخبز ساخن رائحته تربعت في بطن عانى من السفر ثلاثة أيام. كل شيء تغير منذ آخر مرة أتت فيها إلى الجزيرة. عيناها سألتا من أين كل هذا الخير؟! فأجاب الدنف:

ـ اكتشفنا أن جزيرة المنارة فوق بحر عذب وبحر مالح، زرعنا بالعذب وتعلمنا الصيد في المالح.

نظرت إليه مفكرة ومالت برأسها وهي تقول:

ـ ألا تخاف أن يتمنع الجند عن بدء المعركة ضد سنقر الكلبي ودليلة بعد أن وجدوا كل هذه الخيرات؟

ـ ألا تعلمين أن هناك نوعًا من البشر يقتلهم رغد العيش ويجدون أنفسهم أكثر متعة في رفع الظلم عن الأرض؟ من يحارب لأجل رغد العيش سهل إغراؤه، ونحن هنا لم نرب على ذلك.

قالت مازحة:

ـ جعلتني يا سيدي لا أرى في الطعام ما رأيته عند النظر إليه أول وهلة.. حتى إني أخاف أن آكل منه.

ـ بل اختبري نفسك أيتها الصغيرة ولا تدعي بعضًا من هذا الجمال يفتنك، ولتأكلي وأنت تحكين لي آخر ما استجد في المملكة.



أشار إليها بالجلوس، فجلست أمام المنضدة وهي تقص على الدنف كل الأخبار:

ـ حال المملكة يسوء يومًا بعد يوم.. الناس أصبحوا أكثر تخبطًا في بعضهم، انقسموا حتى تفتتوا كلوح زجاج سقط قصدًا فتناثر تيهًا.

أمسكت زبيدة رغيف خبز شقته نصفين بحدة، وهي تتذكر عدوهما الأول:

ـ سنقر الكلبي وجماعة الذعر وجماعة البصاصين والحاشية أصبحوا أكثر استهتارًا بالناس.. يقلبون فيهم كالموتى جوعًا وضرائب وظلمًا وقهرًا.. لا أدري ما الذي يخاف أهل مملكتنا منه بعد كل ذلك؟!

أخذت قطعة من الخبز بحجم فمها ووضعتها في العسل وأخرجتها تنظر إلى تقطر العسل أن ينتهي، واستطردت:

ـ أظن أنه من الأفضل في خطتنا ألا نضع في الحسبان أهل المملكة.

تضع قطعة الخبز وتضغط بأسنانها عليها غيظًا. أوقف غيظها طعم العسل. استساغته طعمًا فقلت حدة أسنانها ضغطًا

ـ إنه عسل نحل الأشجار.. كم أحبه.



ابتسم لها الدنف:

ـ بالتأكيد خبيرة مثلك في عالم العطارة خاصة عسل النحل، ستعلم أي نوع من العسل هذا.

ثم جلس أمامها واستطرد:

ـ غالب الأمراض هنا يتم محوها للرجال عن طريقه.. له مفعول السحر.

ثم ابتسم:

ـ فيه شفاء للناس.

نظرت إلى الدنف وقد قلبت كلمة شفاء غضبها. كلمة ارتبطت بمن أحبته ثم أبغضته وقاومت كل ما تحمل له من ذكريات طفولة لم تكتمل. وجد الدنف ماء وجهها تموج بحدة. وقبل أن يسأل أجابت:

ـ وفيه شفاء لسُنقر الكلبي..

علم بما فيها فلم يعقب. فعقبت هي:

ـ أجود أنواع العسل في المملكة كان يختزنه له طبيبه الهمام ع...



توقفت لم تقدر نفسها أن تنطق باسمه وتابعت:

- يئس من البحث عن هذا الجبان الذي كان يُطببه.

تقوم في غضب. تضع يدها فوق خنجرها المختفي تحت ملابسها:

- خسيس.. إذا قُدر وظهر أمامي لن يجد إلا طعنة في قلبه من خنجري.

اقترب منها الدنف بهالته الدافئة لعلها تلامس هالتها الغاضبة، وبهدوء قال:

- لعلك تكونين أغرقته ظُلمًا.

توجهت نحو سور المنارة. لفحها هواءً بارد حرك دمعًا محتبسًا فوق جفنها، وتهدجت بالقول:

- سيدي.. لا يمكن أن أكون كذلك!

ابتسمت سخرية دون أن يراها الدنف:

- هذا الجبان الذي خرج من ظهر الشجاع...

التفتت نحو الدنف بعد أن اطمأنت أن الدمع جف في العين:



ـ ربي يرحم أباه حسن رأس الغول، الذي لم ير دناءة زوجته وجبن ابنه.

ـ فلتجلسي.

فعلت بأدب

صب لها من الماء صبًا في كوب من فخار، وانتظر حتى ارتشفت من الماء العذب ليصب على نار دمائها، ولما ذهبت حدة موج ماء وجهها قال الدنف:

ـ أريدك أن تسمعيني جيدًا يا زبيدة.. لم تكن فاطمة زوجة رأس الغول في يوم من الأيام دنيئة ولا علي جبانًا.

نظرت إليه زبيدة استعجابًا.

ـ فاطمة صُدمت في أشجع ما رأت عينها، فما بال أي رجل آخر يفعل ما فعله رأس الغول، فأصابها اليأس والخنوع وخافت أن يصيب ابنها ما أصاب زوجها. تخيلي هذا الطفل المشقوق إلى نصفين بين.ما وضع فيه من شجاعة من أبيه وما وضع فيه من خوف من أمه؟

ـ ولكنه اختار الخوف والجبن سيدي الدنف.

علا صوتها فاسترجعت بنظرها أسفًا، فسألها الدنف:

ـ ألم تسألي نفسك مرة واحدة...



صمت برهة ليأخذ كل انتباهها:

- لماذا ترك علي رغد العيش في قصر سُنقر الكلبي، الرفاهية والسلطة والنفوذ، وفي يوم وليلة اختفى وترك كل شيء؟

زبيدة تبحث بداخلها عن إجابة لسؤال تفاجأت به، حتى إنها لم يخطر ببالها. نظرت إلى الدنف بشغف للإجابة ففعل:

- لن أجيبك على هذا السؤال.

- !!!

فلما استعجبت قام الدنف ناظرًا إلى مد البصر من سطح البحر واستطرد:

- عندما أبلغتِني عن اختفاء علي سأت نفسي نفس السؤال الذي طرحته عليكِ ولم أجد إجابة إلا أنه كفر بالقصر وأهله.

التفت إليها الدنف بحماسة:

- فقررت أن أستعيد ابن من عاهدته على احتضان ابنه مثل ابني.. ابن أحب الناس إلى قلبي حسن رأس الغول

ظهرت في عين لامعة وحشة لصديق عمره، ثم تقدم نحو زبيدة:



ـ بحثت عن علي في كل مكان ووصيت كل من لنا في الممالك الاثنتي عشرة حتى وجدته...

صمت ونظر إلى زبيدة بقوة وقال:

ـ أتعلمين يا زبيدة أين وجدت علي؟

نظرت إليه بشوق للإجابة

ـ جبل رجال الموت!

تركت جسدها يهوي مكانها ووضعت رأسها بين يديها، ولما رفعت رأسها ناظرة إلى الدنف وهمت بالكلام أفصح الدنف قبل أن تنطق:

ـ علي هنا يا زبيدة.

خفق قلبها ضربًا فضرب الدنف عقلها بقراره:

ـ علي هو من سيقوم بالمهمة يا زبيدة.. أنا أحضره لذلك وأنت ستساعدينني في ذلك.

نظرت إليه وهي تحاول أن تستجمع كل شيء، قلبها، عقلها، روحها.



أرض الرحيق

غروب يوم بهواء عليل لامس شمع النحل الذي وضع فيه جسد علي. حفرة سداسية سمحت للنائم فيها أن يظهر وجهه كنائم على ظهره فوق سطح ماء. شمع بشارة النحل يساعد على التئام الجروح التي نالته في أنحاء جسده في أثناء تدريبه الذي سقط فيه. وضعوه فيها من ثمان ساعات. هدأت نفسه لما احُتضن من بشارة شمع النحل، وهدأ أكثر لما جف على جبده كطبقة جديدة لكسوة جلده. نائم في ثبات حتى إنه لم يسمع اقتراب خطوات زبيدة التي وقفت فوق رأسه. اقتربت إليه جلوسًا. مددت يديها نحوه حنانًا لتلمس ملامح وجهه. نزّت عيناها بالدموع وتركتها تسقط لما اطمئنت أن لا أحد سيرى سقوطها، وقبل أن تصل يداها إلى وجهه سحبتهما. لم يزل يطفو بداخلها صراع بغضب وغيظ لمن ملأت قلبها كرهًا له عنوة، يقاومه حب دفن في الأعماق، فانتصر بداخلها الآن الكره على الحُب فأجهرت بحدة:

- علي...

* * *

نصف الشفق الأحمر أمام (زبيدة وعلي) ينسحب بهدوء من فوق وجهيهما غروبًا، جلسا صمتًا على حافة خلية النحل المتشقق شمعها لخروج جسم علي منها من قبل. التفتت زبيدة وطافت فوق نصف جسد علي العاري المليء



بجروح قاربت على الالتئام، وقالت:

ـ صدق من قال.. إن الجروح ممكن أن تلتئم.

ثم نظرت إلى وجه علي وعينه المتقدة احمرارًا لانعكاس الشفق الأحمر بداخلها. ودت أن تحتضنه. ودت أن تغرق في عينيه حبًا. صارعت ذلك وأبت وتفوهت:

ـ أتعتقد أن الخسة والجبن في النفس جروح من الممكن أن تلتئم؟!

تحشرج لحن صوتها.

ـ لا تبدئي يا زبيدة.

قالها علي دون النظر إليها:

ـ أعلم جيدا أن عندك من الشجاعة ما ليس فيّ، فأنت تساعدين أخطر رجل يريده سُنقر الكلبي وبحث عنه طويلاً، ماضيّ يريد أن يُكمل الانتهاء بسيفه.. كلنا نخاف من ماضينا السيئ.. حتى الأشرار يفعلون ذلك ولكنهم ينهونه بطريقتهم.

صمت برهة. تبادلا نظرًا. زبيدة أبعدت عينيها عنه، لا تريده أن يرى عين زبيدة المحبة، فقال:



ـ سنقر لن يرتاح إلا بعد أن يري رقبة أحمد الدنف تسقط تحت قدميه.

سخرت قولاً لتمحو نظرة الحب التي رآها في عينيها:

ـ بالتأكيد مثلك خبير بما يريح سُنقر.. يا من اخترت أن تكون طبيبه.

ـ أنا لم أختر أي شيء.

قالها بحدة مكتومة فرددت بهدوء:

ـ أتعتقد أن هذا عذر؟

نظر إليه بغضب. فأشعلت في غضبه غيظها وقالت:

ـ لا تهم الجروح التي في الجسد.. جروح الروح هي التي تُعذب.. وصاحبها هو من يختار أن يصب عليها ماءً مالحًا ويترك العذب فتظل حياته ظمأى.

تصمت برهة لتهدأ حدتها أو ليهدأ هو. ثم أردفت:

ـ لم آتِ إليك إلا لأني أثق في أحمد الدنف، وأثق أنه لن يكشف مكانه لخائن.



ثم نظرت إليه:

ـ وأخاف أنه اختار بعاطفته الشخص غير المناسب للمهمة.

نظر إليها دون فهم لما تقصده بالمهمة.

لملمت عاطفة نفسها قبل أن تُلملم جسدها قيامًا، لارتعاش فرائصها من سريان الدماء في عروقها فورانًا، يتصارع بين الغضب والحب والكره وقلب يحن للجالس خلفها، تتحرك بعيدًا عنه وتقتحم أرض الرحيق أمامها بزهورها وورودها كبحر اختفى فيه نصفها، تطاير النحل من حولها، طن دويا، كساها من حولها الشفق الأحمر فزداها بهاء، فنادى علي:

ـ زبيدة...

توقفت دون أن تلتف. توقفت أملاً أن تسمع ما يجعل قلبها يحن لهذا الطفل، إلى الذي أعطاها ما صنعه لها في الصغر، وما زالت تحتفظ به بجوار القلب.

ـ ما زلت علي.. ما زال ما أصابني به أبي حسن في صغري يلامس قلبي.. والدليل...



قام وتقدم بخطوات حثيثة سبقها كلامه إليها:

ـ لم أرض بالعيش داخل وكر الظلم الذي أراد أن يحيك شباكه حول شهواتي ونفسي...

يهدأ النحل من حول زبيدة. يقترب علي:

ـ هربت يا زبيدة من سُنقر... هربت من أمي.. هربت من عالم اكتشفت أني لم أنتمِ إليه من البداية.. وما منعني خوفي على أمي.

النحل يرسو في قلب رحيق الورد. علي يقترب قائلاً:

ـ الدنف.. التقفني في صدره وأنا صغير.. وانتشلني من جبل الموت وأنا كبير.. فكيف لا أُناضل ليثق بي؟! هذه فرصتي ولن أُضيعها.

شعرت بحرارة جسده خلفها، هالته المشعة اختلطت بهالتها فتمزاجتا. ما زالت تصارع، لا تريد أن تلتفت، فاستطرد:

ـ أنت الوحيدة التي لن أقدر أن تعطيني ظهرها مرة ثانية.. يكفي أول مرة.

تقطرت الدموع على صدرها، وأجمعت لحن قولها متحشرجًا، وانتفضت باقتضاب معاتبة:



ـ أنت من أعطيت ظهرك أول مرة.. وليس أنا!

التفتت إليه ونظرت في عينه. تبادلا نظرًا. عين دامعة مثل الأطفال معاتبة، وعين هدأت لعلم صاحبها أنها تعاتب عتاب الحبيبة. ابتسمت له ثم قطبت الجبين وقالت بحدة مازحة:

ـ ليس أنا من تخاف منه أن يعطيك ظهره، بل الدنف.. لا تعص له أمرًا.

فبادر:

ـ كيف ذلك وأنا أقولها لك من الآن؟ سأنفذ كل ما يقوله لي!

فتحمست:

ـ وإني أنتظرك في ساحة المعركة.. أرض يحكمها الشر وأعوانه.. قاتل أبيك وساجن أمك في نفسها الأمارة بالسوء.

تبادلاً نظرًا...

ثم بهدوء رفعت يديها إلى عنقها وفكت عقدة قلادتها الجلدية، وسحبت من جوار القلب ما علق فيها، قطعة من الخشب بحجم عقلة إصبع. سداسية كخلية النحل نحتت بداخلها ابتسامة نحلة.



ـ وما أدراك أن النحلة تبتسم هكذا؟

قالتها لعلي وهما صغيران، وهو يفكر في رد حتى وجده فقال بطفولية:

ـ إني لم أر ضحكتها ولكن سمعتها...

فنظرت إليه بتساؤل، فرد بسرعة طفل لا يثق في إجابته:

ـ طنين النحل هو ابتسامته...

فصدقته...

ـ لم تكذب علي ونحن صغار يا علي؟

ـ بالتأكيد.. عندما قلت لك إن طنين النحل هو ابتسامته لم أكذب.

أعطته القلادة وضمت يده عليها بيدها وقالت:

ـ أعدها إليّ بعد الانتهاء من مهمتك!

ـ سأنهيها سريعا رغم أني لا أعلمها حتى الآن.

تبسمت له فتبسم لها.

ـ سأرتحل في الصباح الباكر.



ذهبت ابتسامة علي لقولها، فبادرت:

ـ أبي لا يعلم بسري.

ـ وكيف تغيبين عنه بالأيام؟

ـ فتحنا دكان عطارة، ومن وقت إلى الآخر نحتاج بعضها فأسافر عبر البحر.. مهمتي أن آتي بالأخبار إلى عمي أحمد الدنف، وهم يحضرون لي كل ما أريد من العطارة، ثم أعود بها.

نظر إليها على بوحشة. خجلت فاستحى، وقالت:

ـ انتهِ من تدريبك وإني في انتظارك في المملكة!

تحركت فتطاير النحل من فوق الزهور وقد شبع من الرحيق، فطن فرحًا.



علي.. ابن حسن رأس الغول

شروق أتى لم أرها فيه، زبيدة. وغروب ذهبت معه وخشيت ألا أراها قبل الرحيل، فحبوت حبوًا نحو الشاطئ الصخري، لاح لي مركبها عن بُعد يتحرك على سطح الماء، سمح لي البعد برؤيتها. ووددت أن تلتفت ففعلت كأنها سمعت نداء روحي، وابتسمت فتهدجت مشاعري كتهدج مركبها فوق سطح البحر. رفعت يدي لها بالقلادة إشارة أن سأعيدها؛ وحماسة لي لأنهي هنا ما بدأته لأجل مهمتي، فدبت فيّ القوة. يجب أن تكون هنا نهاية متاهتي.

وقفت أمام العيار ولم يفلح معه ما قام به من قبل لإثارة غضبي. لم أبالِ. رميت سلاحي تحت قدميه ونظرت إليه ببرود.

- وقد عاد الشاب الشجاع!

قالها العيار ساخرًا وقهقه بصوته الرفيع. تركته متجهًا نحو حائط السيوف وبحثت عما عرفته مناسبًا فأصبح اختياري سهلاً. سيف رفيع خفيف الوزن مدبب يليق بجسم العيار نقرًا. ونظرت بحثا عن خنجرًا خفيف حتى وجدته. وضعته في خصري وعدت مكاني.

- أمتأكد أن هذا سلاحك التي ستبارزني به؟



رردت على العيار وأنا أستعرض بالسيف الخفيف ساخرًا:

- قلت لي أيها المعلم إن صوت السلاح يقتل العدو قبل أن يطعن.. وأنت لا تحتاج ذلك.

هجمت عليه، فظل واقفا بثقة. أخرج سيفه وهو يعلم أين يكون جرحه. مد سوطه ذي الشرائح الحديدية ليشتت انتباهي بصوته، كالساحر الذي يُلهي العين بيد وبالأخرى يخدع الناس، ولكن حركتي سبقته إلهاء؛ ألقيت بخنجري فرشق بين قدميه، ولم يكد يرفع عينيه نحوي حتى وجد سرواله يسقط على الأرض وتتقطر عليه دماء من جروح حفرت في أنحاء جسمه في سرعة وحرفة.

إذا لم تجد ما تبحث عنه اختبئ منه، وستجده هو من يبحث عنك.

الزيبق ليس مكانه الغابة، فكيف ستجده؟ ولكن من الممكن أن يوجد فيها إذا حمله أحد بداخلها، فعلمت أنه كان يجب عليّ أن أنتظر فريستي في الغابة صانعًا لها فخًا. صعدت شجرة عالية منتظرًا في صبر حتى ظهرت الفريسة. أصفان صاحب الجان، استمتعت بالنظر إليه وهو يبحث عني في أرجاء الغابة. خطوة ستوقعه في فخي لم يخطها بعد. خطوة وسأنال منه. خطوة أخذها فانسحب إلى أعلى في فخ صنعته بعناية كشباك السمك، قيدته



بداخلها وسحبته إلى أعلى. حاول الفكاك منها ولكن كان قد تم اصطياده، فنزلت من فوق الشجرة ووقفت تحته وقلت:

ـ أصفان يا صاحب الجان.. الزيبق لا يوجد في الغابة.

نظر إليّ مفكرًا فأردفت:

ـ ولكنك أنت في الغابة.

ابتسم لي فابتسمت له، فأخرج قارورة الزيبق من سيالته وقال:

ـ لن أعطيها لك حتى تنزلني.

ـ لن أنزلك حتى تلقي بها إلى.

ففعل...

ثم ذهبت إلى حبل المصيدة المربوط في الشجرة فقطعته، ولم أسمع سوى دبة جسمه وصرخته لأني كنت قد اختفيت.

تعلمت.. إذا علمت ما أريده جيدًا سيكون من الصعب تشتيتي.

الدخان يحيطني، أقف فيه وحدي ولا يوجد معي سلاح إلا حواسي فاعتمدت عليها. للمرة الثانية أسمع صوت شد النبال تطقطق مع شدها، أغمضت عيني فانتفضت كل حواسي فسمعت السهام تخترق الدخان لتصيبني



في أنحاء جسمي. كل ما فعلته كان أمرًا سهلاً؛ فقط انبطحت على ظهري فشعرت بكل السهام من فوقي قد تعدتني، بل سمعت من أطلقوها يتأوهون من إصابتهم بالسهام.. فابتسمت في الدخان ساخرًا ممن أرادوا أن يختبئوا مني.

لا تقتل عدوك قبل أن يُخرجك من متاهتك التي صنعها بيده.

داخل متاهة الصخور تحركت إلى صوت دوي النحل ووقفت على بعد منه.. قبلها صنعت في الغابة ما سيساعدني في الخروج من المتاهة. اقتطفت بحرص الوردة السوداء المخدرة وبحرص أكبر فتتها تفتيتا، فصنعت منها مسحوقًا ثم قطعت قطعة من قميصي ووضعت فيها بعضا مما سحقت، ثم نحت خشبة كسن السهم وقطعة خشب حفرت فيها بحجم السن المدبب، ودخلت بها المتاهة، ووقفت على بعد من صوت الدوي ثم جلست وأخرجت قطعتي الخشب، فحك السن في الحفرة حكًا حتى اشتعلت بالنار، فوضعت القماشة بالمخدر فوقها، وسريعًا ذهبت إلى حجر الصخر المختبئ وراءه النحل، فانشق الحجر وسعى ورائي النحل سعيًا. أخذته نحو الدخان المتصاعد من المخدر، ودخلت ولم أخرج. كتمت أنفاسي فيه كتمًا. دخل النحل كله ورائي في الدخان وخرج من الناحية الأخرى هربًا.. وظللت بداخل الدخان حتى فرغت رئتي من الهواء، وتتبعت أثر الخروج؛ سقوط النحل على الأرض من المخدر. كلما وجدت نحلة حملتها في يدي. تعرجت وانعطفت حتى رأيت آخر نحلة تسقط على أعتاب الخروج من المتاهة. وقفت وأخذتها ونظرت فوجدت بعد الخروج من المتاهة أرض الرحيق، في قلبها يقف أحمد الدنف ومن خلفه يقف حمزة البهلوان وأصفان صاحب الجان وعمر العيار، وهم يبتسمون لي ابتسامة الانتصار على المتاهة.



المنارة

هواء عليل تتطاير منه ملابس الواقفين فوق المنارة، ترفرف كأعلام تزف انتصارًا. يتبادل الجميع النظرات فخر بعليّ. تقدم الدنف خطوة نحو علي واحتضنه بعينيه، يحتضن فيه ماضي نضال أبيه ووفاء وعده له بأن يعتني بولده. وقد أوفى.

- مبارك لك يا علي.. اليوم قد خرجت من متاهتك.

أخذ الدنف علي تحت جناحه، وتحرك به حتى نظرا معًا للبحر تحتهما. ممدود مد البصر بلونين متناقضين؛ على يمين المنارة لون البحر أزرق وشمالها أغمق لونًا، لا يختلطان، بينهما حاجز برزخي يراه البشر؛ هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج.

قال الدنف:

- بحران.. أحدهما مالح والآخر عذب في قلب أرض واحدة.. لم يفرض المالح على العذب ماءه، ولم يفرض المالح على العذب ماءه.

استدار الدنف ونظر إلى علي وأردف:

- كل من البحرين يستند على الآخر، دون أن يطغي طرف على طرف..



يجب على البشر أن يتعلموا منهما.. من الممكن أن يكون هناك اختلاف بيننا كبشر، ولكن هذا لا يجعلنا يطغى بعضنا على بعض.

خفض جناحه من فوق كتف علي، وصمت برهة قبل أن يستطرد:

- سُنقر الكلبي طغى علينا وقتل فينا.. وقتل أباك.. بل فرق بين المملكة كلها، وخلط العذب بالمالح، وقد جاءت الفرصة لنتخلص منه ونلم الشمل.

ثم نظر إلى عين علي:

- علي.. مهمتك أن تقتل سنقر الكلبي.

تغيرت ملامح علي فجأة وتبدلت من بعد فرحة إلى دهشة. لم يتوقع أن تكون مهمته القتل، كان يتوقع أن بعد ما سقط الجيل القديم وعلى رأسهم أبوه أن يعيدوا نفس الكرة.. فريق قتل وفريق مطارد أمامه كبيرهم. نفس التفكير القديم الذي لا يجدي، فقال علي:

- الشخص الذي يبحث عنه سنقر، الطبيب علي. يعود إلى المملكة ويدخل القصر ويقتل سنقر! وهكذا تحل كل المشكلات! وكل سنين القتل والهروب والظم والفساد! إنه حقًا أمر سهل!

لم يجد الدنف الحماسة المتوقعة عند سماع علي مهمته، فتوتر دون إظهار



ذلك، ونظر إلى علي متسائلاً، فنظر علي نظرة رفض لأمره، ثم وزع علي قوله على الجميع:

- هذه مهمتكم وهذا اختياركم؟ قتل سنقر الكلبي!

ابتسم علي في سخرية. نظر الجميع إلى بعضهم باستغراب يبحثون عما يدور في عقل الفتى، فتفوه بما يدور في رأسه:

- سُنقر إذا قتل سيظهر بعده سُنقر آخر، بل ألف سُنقر.. سُنقر ما هو إلا أداة في يد دليلة المحتالة.. دليلة من تحرك كل الولاة في الممالك الاثنتي عشرة.. دليلة عششت في أذن السلطان ذاته.. توسوس فيها ما تشاء.. تضع هذا على كرسيه وتخلع ذلك.. كل الولاة يهابونها.

صمت وطاف ببصره ليبحث في أعينهم عما أصابهم من كلامه، فلم يجد، فاختتم قولاً:

- قتل سنقر لن يجدي.

- سنقر يحكم أكبر مملكة في أراضينا. سنقر أقرب الأقربين لدليلة.

قالها حمزة البلهلوان، وهجم بعده أصفان بالقول:

- موت سنقر سيُرهب كل ولاة الممالك، وستكون البداية للانتهاء من جميع ولاة دليلة والسلطان.



ثم تقدم العيار بهدوء إلى علي وقال بنفس هدوء خطوته:

ـ ولا تنس أنه قتل أباك.

ابتسم علي ساخرًا ورجع بظهره خطوات بعيدًا عن العيار، فألم بالجميع في حدقة عينه وقال:

ـ أيها السادة معلميّ.. لن ترجع المملكة برجوع الابن الضال ابن الرجل الشجاع للانتقام لوالده وإرجاع الحقوق للناس.. وإني سائلكم: هل بالانتقام تعود الحقوق؟ وإني أجيبكم إذا كان الهدف الانتقام فلن ننتصر.

أومأ برأسه نفيًا ثم استرسل:

ـ إذا فعلت ما تريدون سأصبح مقتولاً مثل أبي أو هاربًا مثلكم.. بالتأكيد هناك طرق أخرى للانتصار.

نظر علي للدنف وابتسم باحترام له وأشار بيده نحوه:

ـ ذات يوم قال لي الحكيم...

ثم أشار علي إلى بؤرة المنارة:



ـ إن النور لا يظهر إلا في الظلام.. سيدي الدنف سأذهب إلى مكان الظلمة نفسه وسأخبئ فيه النور، إلى أن يخرج في أعين الأعداء.

قالها علي بتحدٍ ثم وثب فوق سور المنارة بخفة، وتحرك فوق كالمشائين على الحبال، وهو يتكلم:

ـ بالأمس أمي رمتني في بحر سنقر الكلبي دون اختياري، وأنتم رميتُموني من فوق المنارة في بحركم دون اختياري...

توقف عن المشي وأعطى لهم ظهره ناظرا إلى مد بصره للبحر أمامه، وقال:

ـ واليوم سأرمي بنفسي في بحري باختياري.

وفجأة قفز علي من فوق المنارة طائرًا في الهواء، مخترقا كل ما حدث له في الماضي، وغاص بقوة في البحر حتى إن الدنف ومن معه عندما وصلوا إلى حافة المنارة ونظروا تحتهم لم يجدوا إلا أثر قفزته في البحر بريم أبيض اختفى علي تحته.

غطس جسده للأعماق، فتح عينيه فوجد أمامه وجه الولي المنعكسة عليه أشعة الشمس المخترقة سطح الماء فوقه، فرأى بوضوح عينيه اللامعتين بابتسامة الحكمة، ولحيته البيضاء تتموج بحركة المياه، ثم سمع منه دون تحريك شفاه:

ـ يا بني قد اخترت الأصعب.. الخير والشر سيصبحان ضدك.

ثم أشار الولي بعصاه ناحية الأعماق، فنظر علي نحو إشارته فوجد قارورة الزيبق الزجاجية تتجه إلى الأعماق، فضرب سبحًا نحوها حتى أمسكها، بعدها التفت للولي فوجده تلاشي كأنه من الماء ظهر وفيه اختفى.





«نتُوه عندما نبتعد عن حقيقتنا»



غابة نابشي القبـور

رُفعت المشاعل ثلاثة أشهر لتقطيع شجر غابة نابشي القبور بحثًا.. بلطات حادة وأيدٍ غليظة وعضلات تربت داخل جبل الموت، تعمل دون كلل؛ أسقطت الجذوع كالقتلي دون دماء وجرتها بعيدا في قلب الغابة، وتركت وراءها ساحة كبيرة استدارات مثل ساحة قتال مُتصارعين رومان تمت تسوية أرضها وحُددت بجذوع الأشجار العالية ذات الرؤوس الحادة، تتمايل فتئن الجذوع لفتح الغزاة منفذ رياح، وقد كانوا من قبل يستدفئون ببعضهم.

ـ احفروا...

قالها الموكل بإيجاد التابوت. قبلها حُدد مكان الحفر في وسط الساحة مقلوعة الأشجار. سبع حفر تغوص في باطن الأرض عمقًا حتى وقفت الفؤوس لصد حائط منيع معدنها القاطع. استغرقوا سبعة أيام بالمطارق ضربًا وهدمًا حتى سقط الجدار.

ـ هذا ما نبحث عنه.

قالها فرحًا (شاهو) كبير جبل الموت، في تنكره باسمه الجديد (زوريق).



الأخ الأصغر لدليلة. لسنين ظلا يبحثان عن التابوت المقدس. سقط الجدار الذي سيخرج من ورائه ما يتمناه هو وأخته لجثمان أبيه القابع في جبل الموت موتًا. سقط الجدار وتعالى الغبار وكُتمت أنفاس رجال جبل الموت، حتى عاد إلى الأرض وهدأ ووضحت الرؤية. مشاعل اقتحمت ظلمة المكان أولها شعلة شاهو، يتحسس بالنيران. تفحص المكان. جدران نقش عليها بحروف ليست عربية، غائرة بلون أحمر لامع، وأرض توسطها التابوت داخل مثلث.

- التابوت المقدس.

لم يتفوه بها شاهو، بل ترددت في نفسه فرحًا، وتقدم في إجلال نحوه، يتأكد، يملأ عينيه منه. قاعدة من الصخر نحت بعناية فوقها التابوت من الذهب. نقش عليه كهان سبعة يحملونه نحو الغروب، وغطاؤه من الحجر المنقوش فوقه مجنحان من ذهب، أعطى كل منهما ظهره للآخر. تلامس جناحاهما ورسم قوس فوق التابوت. ظهر رأس زوريق بينهما. رمى الشعلة أرضًا وتقدم نحو التابوت مرتعشًا كأب تاه منه وليده ووجده، فانكب فوق التابوت واحتضنه بقوة.



جبل الموت ـ ممر الكهان السبع

قدمان تضربان بقوة سعيًا لمرأة سبقت طرف ثوبها الأسود، يحف وراءها ذيله الأرض حفًا، يتموج بخيوط ذهبية يتمايل بميل خطواتها غرورًا، حتى توقفت أمام باب خشبي عظيم أمسكت مقبضه وطرقته سبعًا، ففتحته خادمة الكهان. فتاة اختيرت بعناية وسميت باسم جديد (الراهبة هانا). بنت الخامسة والعشرين خادمة الرهبان بعقيدة لا تتزحزح. تخطتها صاحبة الخطوات المغرورة دليلة: أغلقت خلفها الباب برهبنة حتى سمعت اصطكاك لسان الغلق وقد استقر في معشوقه. استقرت دليلة أمام جُثمان أبيها وأحاطها من الخلف الكهان السبعة في نصف دائرة، يجلسون فوق عروشهم السبعة مقنعي الرؤوس بثوب بني بهت من القدم، لن يغيروه إلا بعد أن يوضع جثمان الأب في التابوت المقدس.

ـ أبي.. لقد أتيت إليك بها وددت أن آتي إليك به من زمن.

علم الكهان بالخبر قبل أن ينطق فترنموا بآيات السحر فرحًا. رموا بطرف بصرهم من تحت غطاء رأسهم إلى جثمان الأب القابع في عرشه المنحوت له جلوسًا في حضن الصخر، محنطًا بجسم تشبث موتًا وتفتق جلدًا وبرز ما كسي من العظم. تقدمت نحوه دليلة بنشوة وركعت أمام جثمان الأب

إجلالاً ورفعت رأسها ناظرة إلى مقلتيه الغائرتين بظلام الموت، وقالت:

- أبي ومليكي.. فلتأذن بخروج رجال جبل الموت.

فرد الكهان بصراخ الخروج.





الرسالة

أخي زوريق.. من الأب.

ابني الكاهن.. الذي ربيت.

وزوجي المقاتل الذي سيأتي إلينا بمُلكنا وننعم ببعضنا بعد اشتياق.

يا من اجتمعت فيه كل ما تبحث عنه امرأة على الأرض.. أشتاق لرؤياك

عند وصولك هذه الرسالة أكون واقفة فوق حافة جبل الموت، ومن رائي الكهان السبعة يباركون خروج أولادك، وكم كنت أود يا حبيبي أن تري ما أرى.

جنود جيشك الذين ربيتهم من كل الممالك الاثنتي عشرة يخرجون محتشدين من قلب الجبل، يدبون تحت أقدامهم الأرض دبًا، خارجين نحو أقطار الممالك الإحدى عشرة حاملين السلاح راكبين الخيول، يسوقون الأفيال المدهونة بالأسود، رافعين الرايات الحُمر والسود تتطاير نصرًا آتيًا. يصيحون بقوة وشجاعة لأجل التخلص ممن ظلموهم من الولاة والحكام. سينشرون في الأرض الدم مُمهدين لنا لبناء مملكتنا الكبرى في العالم. انتظرهم يا أخي.. انتظرهم مطمئنًا حتى تحتضنهم في مملكة سنقر الكلبي.. انتظرهم وانتظر أباك واحفظ له مسكنه حتى آتي إليك به ونضعه معًا في قلب التابوت المقدس، وتراق الدماء تحت مذبحه.

طوى زوريق رسالة أخته دليلة، وتحرك نحو شرفته القابعة في قلب مملكة

سنقر الكلبي، في ليلة هي أكثر الليالي راحة له، وبداخله شغف لرؤية رجال جبل الموت وهم يتقدمون نحوه جيوشًا مؤلفة حاملين على رؤوسهم جثمان أبيه نحو التابوت المقدس.



مملكة سنقر- زقاق

قمر اختبأ وراء غيوم ليلة باردة، وأظلمت أزقة أرض سنقر الكلبي، لانطفاء المشاعل ليلاً توفيرًا... واختبأ الفقراء والمستضعفون داخل بيوتهم الضيقة، ماتوا موتتهم الصغرى وبعضهم ود ألا يقوم منها عندما تشابهت أيامهم فأصبحت كلها يومًا واحدًا.

عكسهم..

حاشية سنقر أرادوا العيش عمرًا فوق عمر لما يستمتعون به من متع تملأ شهوات البطن، الفرج، الجاه، السلطان، المال المكنز داخل خزائنهم يخرجونه بكثرة في هذه الليالي الباردة داخل المواخير الدافئة بالرقص والضحك والسكر، حتى طعنت الروح بالعقول المغيبة. أنهى للتو شهبندر التجار إحدى لياليه عائدًا لبيته. ملأ فاه بالقات المخدر، مضغه مضغًا حتى جرى في الدم تخديرًا فترنحت خطاه.

- الليلة سأقتل لملوم بسيفي طعنًا.

قالها شهبندر التجار قبل أن يخرج من الماخور حاملاً شعلته كالسيف سُكرًا، فضحك الجميع استهزاءً منه، فعاند بغضب خروجًا وطعن الهواء وهو يصرخ:

- أين أنت يا لملوم؟ أين أنت أيها الجبان؟!



جذبه صوت حفيف النار في الهواء، فظل يلعب به كالمجذوب حتى ابتعد وتاه في الأزقة، فقرر الذهاب إلى بيته فأصبح فريسة سهلة لمن يراقبه. سارق الأغنياء من تبحث عنه أعين البصاصين وسيوف جماعة الذعر طريد العدالة، وضع لأجل رأسه ألف دينار من الذهب، تزداد كلما صعب الإمساك به. لملوم المختفي وراء الحائط ينتظر الفريسة.

ـ لن أقول لكِ كل مرة أن تلثمي وجهك.. سينفضح أمرك.. سأجدك في يوم ما ملقاة أمامي قتيلة!

قالها لملوم بصياح خافت للواقفة وراءه الفتاة كاشفة الوجه (زبيدة). فرددت عليه بعند طفلة:

ـ عند ظهور الشهبندر سوف ألثم وجهي.

فأشاح عنها بوجهه المقنع مترقبا ظهور طاعن الهواء، بشعلته التي سطعت متقدمة نحو لملوم وقد تحولت الشعلة في يد شهبندر التجار إلى مجداف مركب يجدف به وهو يتغنى بثقل لسان. يكاد وهو يجدف يحرق ثوبه.

ـ كالمعتاد.

قالها لملوم تأكيدًا على خطتهما قبل أن يخرج من وراء الحائط.



من حارة خلف الشهبندر يتقدم شخص يترقب خطواته، ولما سمع غناء الشهبندر وقف ثم أسرع نحو الصوت مختفيا وراء جدار بيت، وعند استراقه النظر كان لملوم انقض على الشهبندر بخنجره وطعنه في رقبته. تابعته زبيدة واختطفت الشعلة من يد الشهبندر الذي انقلب خوفه إلى نوبة من الضحك، فخاف لملوم من افتضاح أمرهما

ـ هيا.. أخرجي سريعًا كل ماله.

نهر بكلمته زبيدة لبطئها، فانقضت على جيوب سيالة الشهبندر وأخرجت كل أكياس ماله.

ـ نقود كثيرة.

قالها الشهبندر وهو يضحك فكتمه لملوك بضربة فوق رأسه بمقبض خنجره، فتهاوى الشهبندر وعند سقوطه أمسك دون إرادة في طرف لثام زبيدة، فانكشف عنها وجهها فتراءى تحت شعلة النار للشخص المتربص وراء الجدار (علي)، فتسمر مكانه ولم يخرجه من الدهشة إلا صوت الشهبندر صارخًا بصوت مبحوح وهو يستفيق:

ـ يا جماعة البصاصين يا جماعة الذعر.. اللص لملوم.. اللص لملوم.

تلثم علي وتخطى الشهبندر جريًا نحو زبيدة ولملوم اللذين يهرولان في



سرعة. زجرته زبيدة:

ـ ضعيف.. هذه ضربة تضربها لشهبندر التجار؟

فرد عليها لملوم بغيظ:

ـ هل هذا وقته؟ هيا اذهبي بنصف المال إلى زقاق المساكين إلى أن أنهي مهمتي بالنصف الآخر.

ويفترقان.

* * *

زقاق وراء زقاق ومنعطف وراء منعطف حتى وصلت زبيدة إلى حارة المساكين، وفي خفة أخرجت المال من الكيس ولم تلبث حتى تركت أمام الباب الدنانير موزعة، وطرقت بيدها الباب بطرقة يعرفها أهل البيوت. اشتاقوا لهذه الطرقة، من شهر لم يسمعوها. فُتحت الأبواب بشكل غير مرتب وأخذ الناس فرحين دينارًا يشبع قوت يوم قادم. قبلها كانت اختفت زبيدة وتركت وراءها علي يتابع ما يحدث في خفاء.

ـ يا جماعة الذعر.. أمسكت بلملووووم...

أمسك بعلي من الخلف أحد جند جماعة الذعر، فدفعه علي والتفت نحوه



فأشهر الجندي سيفه ورفع شعلته. بهدوء أنزل علي لثام وجهه فتشدق فاه الجندي دهشة وهو يردد:

ـ الطبيب علي!

فلم يجد الجندي إلا لكمة في صدغه تهوي بها أرضًا، اضطر علي لفعلها قبل أن يتم جره لسنقر الكلبي.

ضباب كثيف ينقشع، حتى سمح لسالم العايق أن يرى أمامه حسن رأس الغول مُجسدًا واقفًا بسهام متراشقة في أنحاء جسمه ينز الدم منه نزًا. يبحث سالم في حيرة داخل نفسه، كيف رفعت الحُجب بين الأحياء والأموات. هدأت حيرته لما بشت ابتسامة حسن وذهبت لما اشتم رائحة دمه الطيبة.

ـ سالم...

قالها حسن اشتياقًا، فتقدم الصديق وهبط الضباب الأبيض تحت قدميهما، فطلب حسن:

ـ انزع السهم من قلبي يا سالم

عادت حيرة سالم.. فأومأ إليه حسن أن يفعل، فتقدم وقبض على السهم المرشوق في قلبه ونزعه



ففار الدم حتى كاد يلامس ثوب سالم، مد يده رأس الغول فأعطاه سالم السهم. تأمله حينًا ثم نظر لسالم وقال:

ـ سالم.. علي عاد.. إذا كان في قلبك أي ضغينة منه امحها.. استقبله في حضنك واكنفه بطيبتك.. وسمه باسم جديد كمولود خرج من رحم أمه.

فجأة أتي صوت صرخة امرأة كأنها تعذب في نار جهنم، فتبدل تحتهما الضباب الأبيض بالأحمر كلون الدم. انتفض قلب سالم. رئتاه تبحثان عن أنفاس.

ـ اذهب الآن يا سالم.

قالها في عجلة حسن

فزاغت عين سالم سائلاً

ـ أذهب إلى أين يا حسن؟ أنا هنا غريب!

أحاط المكان صوت وسوسة كوسوسة الشياطين، وأقدام تتقدم تضرب في الأرض بقوة مسرعة.

يقترب حسن إلى سالم ويقف أمامه:



ـ افعل ما يريده علي منك.

صراخ المرأة ذاع فصم الآذان. هز حسن كتفي سالم بقوة وهو يقول:

ـ دليلة قادمة إليكم يا سالم.. افتح عينيك.

الصلاة خير من النوم

الصلاة خير من النوم

فُتحت عينا سالم من نومه، فاستقبلت مسامعه أذان صلاة الفجر يتغلل داخل بيته، فاطمأن مفكرًا إذا كان ما رأي حلمًا أم رؤيا، فغلب على ظنه أنها رؤيا. هدأت أنفاسه، اعتدل فوق فراشه ثم نادى:

ـ زبيدة.. يا زبيدة

لم تجب زبيدة النداء. لتوها تتسلل داخل البيت مغلقة وراءها الباب بحرص

ـ يا بنيتي...

على أطراف قدميها أسرعت واختبأت داخل منحل النحل، وأوقدت



في توتر شعلة المكان، ثم هزت بيوت النحل هزًا داخل الصناديق الخشبية، فطن النحل غضبًا.

- يا زبيدة

نادى بها سالم عند عتبة باب غرفة نومه، فخرجت زبيدة متصنعة النوم تتثاءب حاملة الشعلة:

- نعم يا أبي

- هذا رابع نداء لك.. قلقت عليكِ!

- كنت أحضر لك عسل اليوم لتأخذه معك إلى دكان العطارة.

أومأ برأسه لها وهي تقترب نحوه حاملة الشعلة، فوجدت في وجه أبيها ما لم تره من قبل من إرهاق، وقبل أن تطمئن سبقها سالم:

- اذهبي وأحضري ماء الوضوء.

أومأت بالإيجاب ثم قالت:

- يا أبي.. أرى وجهك مرهقًا.. ألم تنم جيدًا؟

- لا تقلقي يا بنتي.. الحمد لله إنني بخير حال.

وابتسم لها، وأردف بحماسة:

ـ هيا لتصبي لي ماء الوضوء.





بيت حسن رأس الغـــول

شروق شمس يوم جديد على أغصان شجرة تظلل بيت حسن رأس الغول، تعرت وذبلت وعجزت فانحنت لغياب ساقيها، رب أسرة قتل أمامها من سنين، فاحتفظت في جذورها بدمائه التي تشربت به أرضه. كاد باب بيته يسقط فوقها لولا تشبثه بقوة في مفصل الباب الحديد الذي صدئ موتًا، فخرجت رائحته للواقف أمام باب البيت. سالم التي ضخت في خياله ذكريات البيت وأهله المطبوعة في ذاكرة القلب.

ـ الحقيقة الجلية أننا جميعًا سنصبح تحت الأرض يا حسن.

دمعت عينا سالم ودلف إلى البيت بحرص وسط الغبار الذي يغطي كل شيء، مبتعدًا عن أشياء الماضي لأغراض وأثاث تفتق خشبه وتقطعت أقمشته، وخرجت أحشاؤه بقطن اغمق بياضه، وبدت وسط الزحام في الأرض آثار أقدام تتجه نحو غرفة علي، فتقدم نحوها ليتأكد أن ما رآه في ليلته رؤيا. فوجدها.

نائم على ظهره مغمضًا العينين كالرحالة وجد راحته بعد تعب قدمين استطالتا خروجًا من السرير، وظهره استعرض حتى لم يجد جنباه مكانًا. القطن تدلى من قماش الكتان المُهترئ.



ابتسم سالم ونادى بهدوء:

- علي...

ابتسم علي قبل أن يفتح عينيه، ومع فتحهما اعتدل وأبصر هذا الشعر الأبيض الذي كسا لحية سالم، وزادتها بهاء ابتسامته الطيبة، وقال:

- لم يزرني أبي قط في منامي، وأول زيارة له قال لي: انتظر في البيت صديقًا سيحفظ سرك.

- حمدا لله على السلامة يا بن حسن!

احتضنا بعضهما صلحًا قبل عودة فراق. ناقشا أوضاع المملكة وهما جالسان فوق درجات عتبة البيت الثلاث.. كُل منهما له رؤية مختلفة.

- لا يا سالم.. لن أُعيد كرة أبي.. لعل ما فعله أبي كان يناسب وقته، ولكن الآن الوضع تغير.

نظر له سالم محاولاً أن يفهم. قام علي من جواره وقال هو يتحرك:

- الناس لا يحتاجون بطلاً ينقذهم.. الممالك الاثنتي عشرة في قبضة بيت عنكبوت دليلة، وقد قيدت في عشها كل الولاة، وأي مقاومة تحدث داخل بيت العنكبوت تصبح في قبضة الخيوط، وكلما قاوم أحد تم تقييده، وأنا



وأنت وكل الناس داخل هذا البيت.. شئنا أم أبينا.

قام سالم، وقال قبل أن يعتدل:

- أرى في كلامك أنه لا يوجد أمل!

باندفاع رد علي:

- بالطبع لا يوجد أمل.. إلا إذا لم نقاوم.

نظر إليه سالم باستغراب وتساؤل ثم أجاب سريعًا:

- بالتأكيد لأننا إذا قاومنا داخل بيت العنكبوت... سنقيد أكثر.

فقال علي مازحًا:

- إنك تتعلم سريعًا يا سالم

فضحك سالم وهو يقول

- إذن أذهب أنا إلى العطارة وكأني لم أرك، وأنت ارجع لقصر سُنقر الكلبي.

- أنت تمزح؟! بالفعل سأرجع إلى قصر سنقر، ولكن...



يصت برهة سارحًا في خياله وهو يتقدم إلى سالم:

ـ سأرجع كالبهلوان.. كالحواة.. كالمشائين على الحبال.. أمشي على حبال بيت العنكبوت وأقطع أطرافه المعلقة في المملكة طرفًا وراء طرف حتى يتهاوى ويتهدم فوق رؤوس من بنوه بسلاحهم يا سالم.. بسلاحهم سنقضي عليهم.

تقدم سالم:

ـ إذن عليك أن تعلم.. في غيابك عشش في أرضنا عنكبوت سام كبير أحكم خيوطه حول سنقر بشدة.

نظر إليه علي بتساؤل، فأجاب سالم تحمل حروفه غيظًا وكرهًا:

ـ زوريق.. أخو دليلة.. ظهر فجأة من سنة وتربع فوق صدور الجميع.

نظر إليه علي مفكرًا ثم قال بحماسة:

ـ سالم.. عليك أن تصلح ما بدلت وغيرت بيديك.

تعسف سالم في التفكير فأراحه علي وقال:

ـ يداك اللتين أخفيتا ملامحي وأنا صغير أريد أن تساعداني وأنا كبير..



أريد أن أصبح بألف وألف وجه.

ـ عمل العياق؟ المخبأ!

تحرك سالم بعيدا يستجمع فهمه لما يريده علي منه، حتى استدار. وجد علي ينظر إليه منتظرًا الإجابة:

ـ آخر عهدي بمخبأ العياق كان تغير ملامح وجهك.

تلجلج سالم:

ـ لا أدري.. اذ...

قاطعه علي:

ـ لا يهمني ما تدري وما لا تدري يا سالم.. ليس لك عندي اختيار.

تبسم له علي فرد عليه سالم بابتسامة موافقة.



زُقاق المساكين

حر منتصف النهار ألهب أجسامًا متهالكة تتحرك تعبًا من خدمة سادتهم. قوت يوم آخر فرحوا به، وآخرون لم يصيبوا ما أصابوا فأخفى الذين أصابوا قوت يومهم خوفًا من الحسد الذي انتشر بينهم، فتبادلوا الخوف من بعضهم وتركوا سارقي عقولهم وحقوقهم البعيدين كل البعد عن أعينهم لا يظهرون إلا ليلاً طوال فصل الصيف حتى ينتهي. تفرس علي الوجوه المتألمة والأجسام التي تتخبط في بعضها في زقاقهم. لا يطيق أحد الآخر إلا القليل.

ـ ألا ترى أيها الأعمى؟

قالها أحد المارة لرجل عجوز تهتك ثوبه، ونظر باستعطاف للصارخ لعله يرقّ لحاله، فوجد غليظ القلب يشيح بيده وهو يصيح:

ـ فلتمت أيها العجوز

واختفى في الزحام قبل أن يلتفت العجوز مستندًا على حائط به باب قصده علي واقفًا أمامه، في تردد بين مواجهته الحتمية مع أمه وبين التأجيل. فطرق، وقبل أن يفتح الباب رآه أحد جماعة البصاصين، فهرول وسط زحام الناس قاصدًا القصر.

❋ ❋ ❋



ـ هانت عليك أُمك؟!

قالتهـا فاطمة بجلد لتحجب عاطفة وحشـة... وجـد الابن الصمت أفضل.. فهجمت:

ـ انظر...

قامت مشيرة إلى الدار الضيقة الفارغة روحًا الممتلئة فقرًا الرطبة جدرانها، احتوت مصطبة نوم دثرت خيشًا:

ـ أريدك أن تنام فوقها لتعلم قسوة الليالي التي قضيتها في وحدتي عامًا كاملاً.

ـ اهدئي يا أمي...

نظرت إليه بقوة غضب ممزوجٍ بحنين أمومي، تود أن تحتضن من آوته لسنين، ففصل الدمع الصراع. حاولت حبسه بلا جدوى ففاضت عيناها وأنّت بكاءً، فهرول الابن احتضانًا، فأشارت الأم بأن يتوقف، فتسمر مكانه، فاغتاظت من نفسها. كم تريد احتضانه! مسحت عينيها وجلست فوق الخيش الخشن، ووضعت رأسها بين يديها. ساد الصمت. قبلها كانت تأملت ملامح وجهه فلما هدأت قالت دون رفع رأسها:

ـ ملامحك تغيرت!



وجد علي فرصته، فأجاب يطرق بهدوء في نفسها طرقًا:

-علي الذي قمت بتغير ملامحه صغيرًا؟ أم علي ابن حسن رأس الغول؟ أم علي... طبيب سُنقر الكلبي؟

رفعت رأسها وقد تأكدت أنه ليست ملامحه فقط التي تغيرت، بل هناك أشياء انقلبت بداخله في غيابه عنها. توجست خيفة وعزمت على أن تطفئ هذه اللمعة التي عادت إلى عينيه وقد كانت آخر عهدها بها وهو صغير، فقامت بهمة نحو بقجتها المعلقة فوق الحائط ودست يدها بداخلها تفتيشًا وهي تتكلم:

- لا يُهم.. سأعالج كل شيء في وقته.. بالتأكيد رآك أحد البصاصين وبالتأكيد سيحبون عطاء سنقر بخبر ظهورك.

قال علي مازحًا:

- بل إني ضربت أحدهم ليلة أمس على رأسه بقوة.

نظرت إليه وقبل أن تسأل عن فعلته طُرق الباب، فلم تهتم إلا بالبحث في بقجتها حتى أخرجت قارورة فضية صغيرة بغطاء جلد أسود.

الباب يطرق



دست القارورة في يده. نظر إليها علي مبتسمًا وقال:

ـ تركت في سنقر الداء قبل أن تخرجي من القصر!

فقالت بملامة

ـ قبل أن يطردني... بسببك.

تبادلا نظرًا

الباب يطرق بقوة

ـ دس الدهان في سروالك وافتح الباب، وعند إغلاق باب جناح الطبيب علي في القصر سأفضي بعتابي كله إليك.

زاد الطرق بقوة حتى إن الخشب رجف

ـ افتح الباب.

قالتها آمرة.

فذهب علي وفتح الباب فانكشف من ورائه كبير جماعة الذعر، حسن

شر الطريق، قابضًا على سيفه ووراءه رهط من جماعة الذعر، خلفهم الزقاق أصبح فارغًا إلا من المتلصصين من خلف الأبواب والنوافذ.

- من الأمس نبحث عنك حتى إن درك المملكة أمرني انا كبير جماعة الذعر أن آتي بك.. عودًا حميدا أيها الطبيب علي.

نظر إليه علي وهو في عالم آخر، لعل السيف المعلق على خصر الواقف أمامه، هو السيف الذي قتل به أباه. فقال علي:

- أتعلم؟ للمرة الأولى أرى وجهك بهذا الوضح يا كبير جماعة الذعر.

نظر إليه شر الطريق باستغراب، فرد عليه علي بابتسامة ساخرة.



قصر سُنقر- غُرفة الحاشية

فجأة هجمت الثعلبة على شعر شاربه وذقنه ورأسه وبدنه، فأكلت ما أكلت فأصبح جلده كمستنقعات ببقع بيضاء مُجردة من الشعر، وكان من قبل يتفاخر عاريًا أمام جواريه ومحظياته ليلاً تحت صهاريج مشتعلة. الآن يُظلمها ليلاً ليختفي في ظلمتها فلا يرين ما آل إليه مليكهن ودرك مملكتهن سنقر الكلبي، المتخطي نحو قاعة الحاشية لعقد مجلسهم الشهري لسماع مستجدات أمور المملكة وأهلها،.ومن خلفه حرس الذعر اختفى دبيب أقدامهم من عالمه. سارحًا يتحسس بإصبعه ما نُحل في شاربه بتوتر، وهو يفكر في اختيارين أيترك نصف الشارب المتبقي؟ أم يحلقه كله؟

- من هنا يا سيدي.

قالها أحد حرس الذعر لما تخطى سُنقر باب قاعة الحاشية. فُتح له البابّ على مصراعيه. دلف وجلس على رأس الطاولة الرخامية التي تموجت بالأبيض والأسود لامعة، انعكس عليها ضوء النهار من خلف زجاج النوافذ التي استطالت واستدارت حول الحائط، فوضحت وجوه كل الجالسين على الطاولة الرخامية المستديرة من الحاشية. شهبندر التجار، كبير السقايين، كبير الطبالين، قاضي القضاة. ووقف عند الباب خلف سنقر كبير البصاصين يترقب بعين جحظت من كثرة إظهار الانتباه. الكل أصابه الكِبر والعجز



رغم إخفاء ذلك ببعض الصبغ الأسود فوق الشعر الأبيض. أصغرهم شاب في الأربعين يجلس قُبالة سنقر على كرسيه، زوريق الزوج والأخ الأصغر لدليلة، لا يعلم أحد من الجالسين أنه أبُ رجال جبل الموت المُتغلغلة قلوبهم سافكي الدماء محتلي الممالك. رهبتهم ملأت الجالسين لتخوفهم على مناصبهم، ووجدوا أن أكثرهم حفاظًا على مكانتهم في المرحلة زوريق السماك الجالس مشبكًا اليدين الممتدتين أمام سنقر المقيد بمن أرسلته دليلة وجثا فوق صدره، حتى إن زوريق السماك هو من بدأ بالكلام:

- إذا أذنت لي سيدي سنقر...

أومأ سنقر بالأذن لزوريق:

- بعد آخر اجتماع لنا.. فكرت كثيرًا ولم أجد إلا أن...

صمت برهة ومال برقبته واستطرد:

- يجب أن نعلن حالة الحرب في مملكتنا!

انتظر ليرى رد الفعل على سنقر الذي بحث عن إجابة في وجوه حاشيته فوجدها مرتخية لرأي زوريق، فتوتر فهمهموا رفضًا، فقاطع همهمتهم زوريق السماك ووقف وقال:



ـ أعلم أيها السادة أنها خطوة لم تفكروا فيها، وأعلم أن من الأفضل ألا نُثير البلبلة، ولكن لنفترض إذا طارت الأخبار إلى مملكتنا وعلم الناس بخروج رجال جبل الموت!

ثم احتدت نبرته:

ـ رجال جبل الموت سافكو دماء.. تسع ممالك احتلوها.. تسعة حكام تم شنقهم على أبواب قصورهم.. تسعة من أهم كبراء الممالك وحاشية الحكام مُثل بهم وقطعوا تقطيعا بأيدي أهالي الممالك.

كثعلب في الأحراش تحرك زوريق حولهم يرى ما أصابت كلماته، فرأى أعينًا زاغت وقلوبًا.خفقت وحناجر بحثت عما جف في الحلقوم، ونقطة عرق تحركت بسهولة فوق الجسم الأملس لسنقر الكلبي نحو العرقوب، هذه العظمة أسفل الظهر التي لا تبلى في القبور، ومنها يبدأ بناء الإنسان بعد موته. وصل زوريق لكرسيه وجلس وقال بهدوء:

ـ إني أخاف أن تطير الأخبار ونغرق في الشائعات.. نحن إذا بدأنا بنشر الخبر دون غيرنا سنتحكم في ما نريد بثه.

فقال سنقر بأمل كاذب:



- إني لأظن أن قوتهم ستضعف قبل الوصول إلى هنا.. إنهم ليستوا يأجوج ومأجوج.

فقال زوريق ليقتل أمل سنقر:

- سيدي سنقر لا تعتمد على ذلك، فإن اسم رجال جبل الموت لم يأت من فراغ، وإني لأظن أن يأجوج ومأجوج بهما رحمة لن تجدها في رجال جبل الموت.

وهنا قرع كبير الطبالين الموالي الأول لزوريق:

- وأنا ككبير الطبالين أرى ما يراه السيد زوريق.

فتهكم سنقر:

- بالتأكيد يا كبير الطبالين.. تموت في نشر المصائب.

ثم نظر إلى باقي الحاشية فأومأوا بالإيجاب في تردد وتحفظ، فكان ذلك كفيلاً بأن ينصاع الجميع لاتفاق أخذوا قراره من سنقر بالأمس.

* * *



ما كاد يدخل علي بصحبة كبير جماعة الذعر قصر سنقر إلا واصطك فتحًا باب قاعة مجلس الحاشية، يخرج من فيها دفعة واحدة على رأسهم سنقر الكلبي، وبجواره زوريق السماك صاحب العمامة الحمراء. اتسعت حدقتا علي، لثوان تسمر مكانه وتلاشى كل شيء من حوله إلا زوريق. هو هو من رآه في جبل الموت فوق المنبر طويل القامة ذا الملامح البارزة التي استقر فوقها بقوة حاجبان ثقيلان تحتهما عينان حادتان ولحية كهرم مقلوب حُفت بعناية.

ـ نفس الإحساس الذي أتاني عند أول رؤية له أيها الطبيب.

قالها كبير جماعة الذعر خافتة في أذن علي. فاستقبلها علي وعقلها.

ـ علي...

قالها سنقر وهو يخطو نحو علي فرحًا حتى استقر أمامه.

ـ انظر يا طبيب علي.

أشار سنقر إلى شاربه وذقنه

ـ انظر...

شمر عن ساعديه ليريه جلده الأملس. وقبل رفع عباءته ليريه قدميه



تنحنح كبير جماعة الذعر، فاستدرك سنقر وأنزل عباءته. استدار لحاشيته من خلفه وقال في سرعة:

- إني أرى أن رأي زوريق هو الرأي الأصوب، فليخرج الطبالون لإعلان الخبر للناس، تفضلوا.. تفضلوا.

جروا جميعا أذيال ملابسهم تحركًا نحو باب الخروج، نحو علي. آخرهم كان زوريق. تبادل هو وعلي النظرات. ها هو في أقرب مسافة من خطيب رجال الموت ومربيهم ومعلمهم وساقي عقولهم كذبًا.

- عطرك جميل!

قالها علي لزوريق فتوقف بعد أن تخطاه ملاحظًا نبرته الساخرة، فاستدار زوريق وقال بهدوء

- أشكرك.. يا طبيب علي، طبيب درك البلاد صغير السن مثلك ويصبح بهذه الشهرة لأمر عظيم.

وصمت وهو يتفحص ملامح علي:

- ولكن فضولي يجعلني أسأل لمَ الهروب - كما سمعت - من القصر؟ وأين كنت؟ ولمَ الظهور فجأة؟



ـ وصوتك جهوري.

ضرب علي فوق أوتار غيظه بسخريته أكثر، فتبسم كبير جماعة الذعر بشماتة أخفاها.. هذا الذي سحب من تحت يده قوة وراء قوة كان يسيطر عليها.

ـ تفضل يا سيد زوريق.. إني أسند لك باب الخروج

قالها كبير جماعة الذعر، فقطع تبادل نظرات علي وزوريق، فخرج الأخير دون كلام وتقدم سنقر مبررًا بخبث:

ـ لا تعتقد أني طردت أمك يا علي.. أين هي الآن؟

دون إظهار أي ضغينة أجاب علي:

ـ متعبة بعض الشيء فآوت إلى غرفتها

تقدم سنقر خطوة نحو علي وقال في زيادة خبث:

ـ هذه المسكينة تحملت كثيرًا، وإني لم أفعل ما فعلت إلا لاصطيادك بعد أن مللت من عدم رجوعك.. قلت في نفسي لن يعيدك إلا طردها، فعند علمك بذلك بالتأكيد لن تهون عليك أمك.. لم تجب زوريق.. أين كان اختفاؤك؟



فابتسم علي وقال:

ـ هذه قصة طويلة وبالتأكيد سأسردها لك ولكن ليس الآن.

ـ بالتأكيد.. والآن...

رمى سنقر عباءته أرضًا وشمر وأنزل تاجه وقال:

ـ طمني يا طبيب علي.

لم ينظر علي إلى جسده، بل ظل ينظر إلى عينيه وقال في ثقة:

ـ لا تقلق يا درك البلاد.. فكل شعرة سقطت سأعيدها.



بيت سالم

الدنف:

ـ زبيدة.. الخطة تغيرت.. علي رفض قتل سنقر الكلبي.

طوت زبيدة رسالة الدنف بغيظ غاضب للمكتوب فيها، وطوي معها أمل عاد إليها، وسرعان ما محي.

استجمعت قواها لتفتح الرسالة من جديد، لتعلم ما هي خطة الدنف البديلة، فطُرق باب غرفتها فأخفت الرسالة تحت جلستها فوق سريرها:

ـ ادخل يا أبي.

فتح سالم الباب ونظر إليها برهة مترددا، لما أحس في صوتها حزنًا مكتومًا

ـ هل أنت بخير؟

محت بعض قلقها بابتسامته وزادت:

ـ لا تقلق يا أبي.. أظن تعب اليوم في العمل.. سأزيله بقيلولة.



ـ فليكن.. أحببت أن أعلمك بخروجي.

تبدلت ملامحها استغرابًا.. لم يخرج والدها في هذا الوقت من قبل.. ولكن لمَ لا؟ فهي تريد أن تختلي بنفسها.

ـ كما تحب يا أبي.

همّ سالم بالخروج، وقبل رد الباب أخذ قراره بإعلامها بما تردد في قوله:

ـ لقد عاد علي.

دُهش الوجه. محاصرة هي بعلي بين رسالة تحتها وخبر من أبيها

ـ ومن أين لك الخبر يا أبتي؟

ـ وكيف لا يتحاكي الناس بعودة طبيب سنقر؟

ـ الجبان هو وأمه!

جزت على أسنانها دون شعور، وذهبت بداخل مشاعرها المتضاربة. نظر إليها سالم مفكرًا دون رد، وذهب تاركًا خلفه حربًا وصراعًا بداخلها. قلب في طرف وعقل في طرف وروح تبحث عن حل للجمع بينهما.

أخرجت نفسها من ذلك حتى حين، وسحبت رسالة الدنف التي دستها تحتها لتعلم ما هي الخطة البديلة للتخلص من سنقر الكلبي.



مخبأ العـياق

شموع منطفئة لم تتم إنارتها من زمن. بعناية مدت يدٌ بمشعل ليضيء أول شمعة، فلما أضاءت وضعت اليد الشعلة فوق الحائط داخل حلقتها، وأمسكت بالشمعة، فتلاعب لسان لهبها كلما تحركت لتنفخ روح نارها في سرب من الشموع المصفوفة واحدة تلو الأخرى، فتدب الروح فيها بنور فتيلها فأضاءت ما حولها. ثم أعادت يد سالم الشمعة في مكانها، وعند ذهابه للإتيان بعلي كان قد دخل ومسح بعينيه المخبأ. هو هو كما حُفر في ذاكرته. استقرت عيناه فوق المرآة التي تقبع أمامه، وتحتها الشموع مصفوفة، تقدم نحوها في تحدٍ لترى المرآة أنه عاد إلى حقيقته، ولكن عين المرآة كان ملء سطحها الغبار، فمد يده إليها ومسح الغبار من فوقها حتى تبصره. ولما أبصرته وجدت ملامحه الحقيقية وقد انمحى ما طبع فيها وهو صغير. الوجه وضع أمامها جبرًا وغيرت ملامحه شكلاً وقطعت أوصال طفل تربى على الشجاعة، فحالت بينه وبين ما أراده أبوه لما اختارته له أمه. الآن يقف باختياره عازمًا أن يصنع لنفسه ألف وجه ووجه، ليقلب حياة أعدائه، ولن يتوه في أي وجه من الوجوه، لأنه علم من هو وما يريد وما اختار، وعندما يعلم الإنسان ما يريد يسهل عليه ما يختار.. دون تردد.

- ستظل واقفًا كثيرا أمام هذه المرآة الباهتة؟!

قالها سالم مبتسمًا، فالتفت إليه علي في حماسة ليبدأ في خطته دون مقدمات،



وأسر بأول خبر:

- زوريق هو شاهو يا سالم.

صمت وأردف:

- كبير رجال جبل الموت هو نفس الرجل الذي في يده مفاتيح أبواب مملكتنا.. اليد التي تنقذ هي اليد التي تُغرق

تقدم سالم نحو مبهوتًا وقال:

- شاهو! شاهو ساقي العقول كذبًا وزورًا هو هو زوريق؟!

خلع عباءته وكورها يمسح المرآة بحرص حتى لا تنطفئ الشموع من تحتها.

شمعة انطفأت في أثناء المسح.

- وضعت بذرته دليلة هنا.. دليلة هذا السر الذي يجب أن نعلمه.

انطفأت شمعة من الغبار المتساقط، فتوقف علي عن المسح والتفت لسالم وأردف بحنق:



ـ دليلة المحتالة الساحرة.. سكنت في أذن السلطان وعششت فيه.. دليلة من تتحكم في خلع ووضع الولاة فوق العرش، حتى أصبح كل الولاة في كل الممالك وبينهم سنقر الكلبي مربوطة أعناقهم في حبالها، تأرجحهم كيف تشاء، فتتخبط أقدامهم الثقيلة فوق الناس، فأصبح الناس نصفهم مدفون في داخل الحائط فاستقر في خوف، والنصف الآخر أصابه اليأس والغضب فتلقتهم هي وأخوها في جراب جبل الموت. دربوهم ووضعوا في أيديهم السلاح وقبلها ملأوا القلوب بالغل وأخرجوهم ليحطموا الحائط وبداخله الخائفين، فنقتل بعضنا بعضًا.

نفرت عروق علي وفار الدم وتخبط القلب في الصدر، ونفث ما فوق قلبه بحرارة واستطرد:

ـ نحن القاتل والمقتول يا سالم.

أطلق سالم زفيرًا ساخنًا ممزوجًا بقوله:

ـ أبناء الشياطين...

ـ لولا لطف الله بي لأصبحت واحدًا من رجال الموت.. بالتأكيد سمعت ما شاع من خبر الطبالين.. ممالك تسع ملئت أراضيها بالدم وسماؤها بالدخان الأسود.. بالتأكيد هم قادمون لنا..



نظر سالم إلى علي بلمعة عين، وتحرك بحماسة نحو رف معلقة فيه ملابس تنكر العياق متداخلة الألون لامعة. دس يده بينها حتى اختفى نصف ذراعه فتناثر التراب فأثار حلقوم سالم سعالاً مبُعدًا وجه بحاثًا بأنامله عن موضع يعرفه حتى وجده، فشد يدًا خشبية سرية، فخرج صوت تروس مخفية زحزحت المرآة فتحًا، ومع فتحها أضيئت بصهاريج في السقف. مع الفتح فاحت رائحة وقودها هبوًا من الداخل، فانعكست فوق مرايا أشعت نورها على وجه علي الواقف منبهرًا. نظر إلى سالم مستعجبا بتساؤل، فأجاب:

- هذا سر العُياق الأكبر

ثم تقدم ووقف على أعتاب الغرفة السرية، وقال:

- هذه كانت مفاجأتي لك.. فيها كل ما ستحتاجه في معركتك.

ثم أشار سالم له نحو الغرفة، فتقدم علي باستكشاف بعينيه حتى دخل بانبهار وتوسط الغرفة السرية.

كالتوأم تشبه غرفة المرايا هذه لتلك التي تم تدريبه فيها فوق جزيرة المنارة.

الغرفة المستديرة بمرايا استطالت يغرق من دخلها في نفسه من كل الاتجاهات. وابتسم علي وقال:



ـ لقد تم صنع مثلها في...

صمت علي شاعرًا أن هذا ليس وقت حكي قصة الدنف لسالم.

ـ تم صنع ماذا يا علي؟

قالها سالم بغيرة واستطرد:

ـ أيًا كان ما رأيته في رحلتك، لا يوجد مثل غرفة المرايا التي صنعها أبي.. رحمة الله عليه.

وأسرع سالم الخطى نحو إحدى المرايا وبضغطة على طرفها فتحت فأفشت ما وراءها من طاقم ملابس تنكر روماني، وشارب ولحية وشعر مستعار أشقر، وفي الأسفل صندل متشعب جلده حتى الركبة.

ـ هنا كل مرآة تفتحها تجد فيها شخصًا تريد أن تتنكر فيه.

وظل يفتح في المرايا فيظهر ما وراءها، ما زاد علي انبهارًا:

ـ وهذا كل ما أريده.

ـ هذا ما تراه فقط.. وإذا أردت التنكر بأي شيء غير الذي تراه أصنع لك.. أعدك أن تدخل إلى هذه الغرفة وتخرج منها شخصًا آخر، حتى إذا

أردت أن تكون «فطاطريًا»، إذا أردت أن تكون شهبندر التجار أو قاضي القضاة، أو حتى كبير جماعة الذعر، سأجعلك تشبهه.

قالها سالم بتحدٍ ثم استطرد كالأطفال وقال:

- قل لي الآن.. غرفة المرايا التي رأيتها مثل ما ترى؟!

ضحك علي وقال:

- لا تشغل بالك بما كنت أرجو إغاظتك به.

اقترب سالم إليه في غيظ:

- أفعلت ذلك لتلهب حماستي فقط؟

اكتفى علي بالابتسام له، ثم مسح بعينيه وهو يدور بجسمه كل المرايا التي كشفت له كل الشخصيات المخفية خلفها، صانعًا في خياله ما يريده من تنكر، حتى توقف أمام باب مرآة لم يُفتح. وجد فيها نفسه فسأل:

- سالم.. لماذا لم تفتح هذه المرآة؟

نظر سالم إلى المرآة مفعمًا بحكمة أبيه التي قالها له في الماضي:

- إذا نسي المتنكر حقيقته سيبتلعه ما تنكر به.



حصن جماعة الذُعر

سور عالٍ من الحجر بأبراج حراسة. أحاط السور حصن جماعة الذُعر، له بوابة عظيمة تغلق رفعًا بجسرٍ وتفتح بنزولها، لخروج نوبتجية الليل ودخول نوبتجية النهار من جنود جماعة الذعر المُختبئ في صفوفها علي. يدخل معهم متنكرًا بنفس ثوبهم المشهور في المملكة. ثوب طُرز من جلد الثيران وصُبغ بالأسود، فوق صدورهم واقٍ من فولاذ تشابك يصلصل مع دبيب الأقدام بكعب حذاء من حديد، كحدوة خيل يصطك بالأرض فتهتز على الخصر قبضة السيف وخنجر وكرباج التف وتلوى ولمع كثعبان أحمر، ونصف قناع على الوجه من نحاس، غطى الجبهة والعينين والأنف، وترك الفم فوقه شارب استعرض ونفش. كلهم يشبهون بعضهم كنسخة أخرجها بطن واحد.

ـ كلما استغلظت قوة هابك الناس.

يصيح بها كبير جماعة الذُعر في كل فوج جديد يستقبلهم. قبلها يتم اختيارهم بعناية من أنحاء المملكة، طوال الأجسام، عراض المناكب، فينفشون عضلاتهم عنوة وقهرًا وطعامًا وكسوة واستعبادًا وطاعة، أولها حماية سنقر الكلبي المُلتصق سور قصره بالحصن لحمايته.



- تأكد يا كبير البصاصين أنه إذا حدث لسُنقر أي مكروه الآن، سنؤخذ معه في مكروهه.. انظر...

وأشار كبير جماعة الذُعر نحو حائط غرفته القابعة في قلب ثكنة جماعة الذعر، فوقها رقاب غزلان محنطة، في أعينها آخر لحظة لها قبل قتلها، ينعكس منها الموت غدرًا واصطيادًا، فتمعن فيها كبير الذعر وقال:

- هكذا ستعلق رقابنا.. هكذا يريدنا زوريق أنا وأنت.. أنا وأنت أكبر قوتين لم تقعا بعد تحت يد زوريق السماك.. فلا تجنح له كما جنح الجميع.

فانتفض كبير البصاصين بالكلام:

- ولكن يجب على سنقر أن يفعل شيئًا!

وقف كبير الذعر أمام كبير البصاصين وأيقظ ما غفل عنه صاحبه:

- سنقر ليس سهلاً كما تعتقد.. هو خبيث.. ويعلم أن زوريق يخطط لشيء بيد دليلة، فتصنع الخنوع كعادته إلى أن يكتشف سرهما، وأنا وأنت يجب أن نساعده لمعرفة ما يخططان.. وأنت أدرى مني بالقاعدة الأولى.. إذا جهلت عدوك فقد انتصر عليك قبل أن تبدأ المعركة.

نظر إليه كبير البصاصين اقتناعًا ببعض شوائب، تردد وقال:



ـ سأفعل وأقف في جانب سنقر، ولكن إذا حدث وتهدم المعبد لن أقف إلا تحت أقوى عمود ثابت وأحتضنه.

اكتفى كبير جماعة الذعر بافتراش ابتسامة على وجه، لّمها عند سماع إطلاق إشارة البوق من الخارج، فتوجه نحو باب ثكنته القابعة في قلب الحصن متكلمًا:

ـ اسمح لي الآن.. هذه إشارة إتمام نوبتجية الليل قبل خروجها.

فتح باب ثُكنته المطلة على ساحة حصن جماعة الذعر. وقف على أعتابها كبير البصاصين، وقبل أن يخرج...:

ـ انتظر

قالها كبير جماعة الذعر ودخل سريعا نحو منضدته وأتى بالمنظار المكبر لكبير البصاصين وأعطاه له:

ـ نسيت سلاحك.. وأظن أنك تصبح قصير النظر دون منظارك.

استوعب الكلمة كبير البصاصين من صديق عمره في عالم الدسائس. أخذ منظاره وانطلق فوق حصانه خروجًا من باب الجسر، وترك خلفه صفوف جنود الذعر يتحركون نحو ثكانتهم، يتابعهم كبير الذعر من على أعتاب ثكنته العالية عن الأرض بسبع درجات صنعت من أشجار خشب



غابة النابشين، التي لا يدخلها أحد خوفًا، فدلت على قوة بانيها الواقف منتظرا حتى اختفى جنود الذعر في تبديل النوبتجية. طَن في أذنه صوت نحلة أتت من داخل ثكنته.

- كيف دخلت هذه الحشرة؟ كم أكرهها.

قالها كبير الذعر ودخل ثكنته في حدة بحثًا عن النحلة التي تطن.. قبلها تسلل علي عبر النافذة الخلفية وأخرج من سيالته قارورة صغيرة بغطاء جلدي، كان بها ثلاث نحلات أطلق حريتها في ثكنة كبير جماعة الذعر الباحث عنها في السقف، وعند اللحظة الحاسمة في إلهائه بالنحلة مد علي سن سيفه خلف رقبة كبير الذعر.

- هل النحل يستيقظ ليلاً؟

قالها علي ساخرًا وقد وضع غطاء القارورة الجلدي الصغير في فمه لتغيير صوته، ثم استطرد:

- أي حركة منك ستقتل بها نفسك يا كبير جماعة الذعر.

كبير جماعة الذعر متسمر مكانه ليس خوفًا بل غير مصدق؛ من هذا الذي يتجرأ على دخول ثكنته؟! فابتسم ساخرًا وقال:



ـ مؤكد أني أحلُم! من له القدرة ليدخل ثكنة كبير جماعة الذعر ويهدده بالقتل؟ إن هذا لشيء ممتع.

ـ الأمتع ما يقوم به زوريق معك.

أصاب علي في مقتل أفكار كبير جماعة الذعر، فصمتَ صمتًا مطبقًا فبادر علي:

ـ لن أفصح لك عن دوافعي للتخلص من زوريق وقبله أخته دليلة.. ولكني أتيت لأعرض عليك عرضًا...

طارت نحلة فوق رأس كبير جماعة الذعر فطنت في أذنه، فتذمر وقال:

ـ هات ما عندك!

ـ قبل أن أفضي إليك بما عندي، فضولي يقتلني؛ كيف لكبير جماعة الذعر بجنده ترك الساحة لهذا الوضيع الغريب الجاثم فوق مملكتنا؟

قال بغرور كبير الذعر:

ـ هذا الوضيع ذكي حد العبقرية، وضع يده على مقاليد القوة داخل المملكة وأجاد تحريكها فسبقني.. الأساليب اختلفت.. لم تعد تدار الحروب بقوة السلاح.. بالتأكيد لم أترك له الساحة أيها الغبي.



اختتم كبير الذعر كلامه بغرور، فاستغل ذلك علي فأنزل سيفه بهدوء وقال:

- إني سأصنع من نفسي فخًا له بما أعلمه من أسرار عنه لا تعلمها أنت.. وأنت تعطيني مفاتيح الدخول إليها أو مناطق قوته في المملكة.. لعلّي أكشف لك فوق أسرارك أسراري فتكتمل وتتضح لك الرؤية.

لطالما أراد كبير جماعة الذعر معرفة كل أسرار زوريق السماك، فسأل بذكاء:

- سأفضي لك ببعض ما ينفعك من القول.. أتعلم لماذا؟

وصمت برهة، فأجاب علي:

- نحن الاثنين نشترك في العدو وأعلم جيدًا كم تريد كسر شوكته، ولكنني أقتلعها كليًا من مملكتنا.

- هذا صحيح.. ولكن السؤال الأهم بالنسبة لي الآن، هو كيف علمت كرهي لزوريق؟

ثم صمت كبير جماعة الذعر واستطرد بمكر:

- يبدو أنك شخص قريب مني!



ابتسم علي بحثًا عن إجابة حتى وجدها:

ـ يا كبير جماعة الذعر.. إنه قد أصبح واضحًا للجميع أن زوريق السماك يهدد مكانتك.

هم كبير جماعة الذعر بالالتفات، وفي سرعة لامس علي بسن سيفه قفاه وحذر:

ـ لا.. لا.. لن تراني.

سكن كبير جماعة الذعر مكانه، وقد فكر ودبر سريعًا؛ هذا الجريء المتجرئ لدخول ثكنته بشجاعة، هذا المحاور في كلامه ذكي، هذا الذي يعلم الكثير بين أسطر كلامه، ولعله يكون بالفعل فخًا لطالما أراد صناعته لزوريق السماك، فأفضى له كبير جماعة الذعر بكلام مقتضب:

ـ زوريق السماك وضعهم جميعا تحت جناحه.. إذا أردت أن تشق بطنه وتخرج كنوزه عليك بشهبندر التجار، وإذا أردت أن تكتم صوته فعليك بكبير الطبالين، وإذا أردت أن يظمأ فعليك بكبير السقايين، أما مخالب الظلم فقاضي القضاة.. دليلة نابها أخوها هنا، يعض على الجميع بنواجذه نهشًا...

صمت وانتظر رد فعل علي، ولكن عاد صوت طنين نحلة تطير من حوله رآها:



ـ عليك أن تأخذ نحلك قبل أن تذهب.

لم يجد ردًا فشك أن من خلفه اختفى، فالتفت فوجد الباب النافذ ناحية قصر سنقر الكلبي مفتوحًا، وعن بعد وراء أحد أعمدة القصر لمح جسم علي، فجرى نحوه ونادى:

ـ يا حرس جماعة الذعر.

صدى النداء تردد في أنحاء القصر، فخرج إليه الجميع من كل فج سراعًا، فصاح فيهم كبير جماعة الذعر:

ـ هناك غريب في القصر

وأشار لهم إلى آخر ما لمحت عيناه لهروب الغريب، فتوجه الجند نحو ما أشار، ممر آخر البهو، وقبل وصولهم سمعوا صوت كسر زجاج فأسرعوا الخطى وعند وصولهم إلى الممر وجدوا زجاج النافذة الملون قد تحطم.

* * *

داخل غرفتها استيقظت فاطمة في ذعر من صوت تحطم الزجاج القريب من غرفتها، ونادت:

ـ يا علي



كان في غرفته يخلع ملابس جند جماعة الذعر سريعًا. ألقاه تحت السرير واستبدل بها ملابس نومه، وخرج أسرع من غرفته وعند فتح الباب وجد أمه أمامه تنهج سائلة:

- أسمعت هذا الصوت؟

- نعم يا أمي سمعت.. سأتفحص ما يحدث بالخارج.. لا تقلقي.

قالها بثقة طمأنتها وتخطاها فاتحًا الباب. وجد جنود الذعر متكتلين في آخر ممر جناح ثكنته، في آخرها تعرى زجاج النافذة فظهرت خلفها الحديقة وأشجارها العالية. يتفحص الجند بحثًا عن هذا الغريب وسط الأشجار.

- ما الذي حدث؟

قالها علي للجنود فالتفوا إليه، وعندما همّ أحدهم بإخباره جاء صوت كبير جماعة الذعر من خلف علي:

- لا تقلق يا طبيب علي وادخل لإكمال نومك ولا تشغل بالك.

- كيف لا أشغل بالي؟ نافذة ممر جناحي محطمة.. هل هو لص؟ وكيف يتجرأ لص على دخول قصر درك المملكة سنقر الكلبي؟!

فبادر أحد الجنود:

- إنه أحد جنودنا.. لقد لمحت ملابسه عند دخوله الممر.



ـ انتهينا.

قالها كبير جماعة الذعر بحزم واستطرد:

ـ تفضل أيها الطبيب أكمل نومك ولا تقلق.. وأنتما...

أشار إلى اثنين من الحرس:

ـ فلتكونا بجوار النافذة حتى يتم إصلاحها، وجميعكم كل يقف في حراسته.

وتحرك كبير جماعة الذعر ومن خلفه الحرس، وظل علي ينظر إليهم حتى خرجوا من ممر جناحه، ثم ابتسم ساخرًا.



مخبأ العُياق ـ غُرفة المرايا

نهار يوم لم يجد نوره مكانًا للدخول إلى مخبأ العياق كعادته. يقلب علي في يده شارب الذعر وهو جالس في ركن من طين في قلب المخابىء، وسالم يحاول أن يفتح اليد السرية الخشبية لباب غرفة المرايا الذي انحشر فيه ثوب حريري، وقال:

ـ اقتربت إلى كبير جماعة الذعر كما أقف أمامك هكذا يا علي؟!

قالها سالم مدهوشًا، فمازحه علي:

ـ فرائصه كانت ترتعد أمامي.

أخرج سالم الثوب فانفكت اليد الخشبية وانفتح باب غرفة المرايا. قام علي واتجه إليها وقال:

ـ كاد الشارب يسقط.. عليك أن تثبت اللصق يا سالم.

ـ لعل الزمن أفسده.. سأصنع غيره.

ودخل سالم الغرفة وراء علي الواقف أمام إحدى المرايا يفكر، ثم يبوح بما يفكر فيه:

ـ سالم.. أريد اسمًا لي.



نظرًا إليه سالم واتضحت في خواطره كلمة حسن رأس الغول في الرؤية (سمه باسم جديد يا سالم).

فاستطرد علي بقوة فأتى بسالم من خواطره:

ـ أريد اسمًا يُعرف عند أعدائنا لا ينسونه.

فبادر سالم:

ـ وتريد سلاحًا!

نظر إليه علي باستغراب وتساؤل في صورة سالم المنعكسة في المرآة، فأكد سالم:

ـ نعم.. سلاح تحمله.. أرأيت ما حدث في أول مهمة لك؟!

تحرك سالم نحو إحدى المرايا وفتحها فانكشف من خلفها ثلاثة أدراج مُستطيلة. فتح سالم درجًا وراء الآخر وأظهر ما فيها. ثلاثة أسلحة نائمة في جوف من القطيفة الحمراء، تدرجات فوق بعضها رصًا

ـ تقدم يا علي.



فتقدم وبصر وانبهر. ثلاثة أسلحة. سلاح العُياق، سلاح الشُطار، سلاح العُيار.

ـ الأسلحة لك الآن.. أبوك هو من وضعها بيده في هذا المكان، وقال للجميع إن هذه الأسلحة الثلاثة ستنادي على صاحبها.. احملها.

ـ أنا يا سالم.. إني قد أخذت العهد على...

قاطعه سالم:

ـ أعلم أنك لا تريد قتل أحد، فاجعل الأسلحة للترهيب والحماية.

ثم أشار سالم نحو الأسلحة:

ـ خذها بقوة.. فإن الأسلحة تشعر بحاملها.

مد يده علي إلى أول سلاح. سيف حمله ففاحت رائحة الغمد الجلدي البني المتآكل منه. أمسك المقبض العاجي المرصع بفضة موزعة على أصابع اليد، باردة تطفئ سخونة القبضة المُمسكة بها في الحرب. مصقول بفولاذ لامع انعكست عليه ألسنة نيران المشاعل فتوهج. أعاده علي لغمدة وربطه على خصره وثبته وقال:

ـ سيف العيار



ثم مد يده للدرج الثاني وحمل ما فيه قائلاً:

- دبوس العياق

.سلاح خفيف. عصا قصيرة من الحديد مُزينة بنقوش ذهبية ذات طرف به رأس حديدي برزت منه سنون مدببة من نحاس مُهشمة للعظام، والطرف الآخر لبلطة مشفرة. بحرص وضعه في مكانه بجوار السيف، ثم رفع رأسه ووجد في انتظاره درع الشطار، يحملها سالم ويمدها لعلي كطفل رضيع.

- إنها ثقيلة يا علي.. احمل عن العجوز!

قالها سالم مازحًا فحملها علي عنه باسمًا، ووضع ذراعه بداخل الدرع وحركها في الهواء، وصد بها في خياله مهاجمًا وأخرج السيف بحرفة وحارب وتعارك وطعن في الهواء واستعرض، ثم أعاد السيف إلى غمده وأنزل الدرع بجانبه وأطلق زفيرًا بصوت، وابتسم لسالم وقال بحماسة:

- كفانا لعبًا ولنحضر للجولة الثانية.

- طلباتك مجابة يا علي يا زيبق!

فابتسم لاسمه الجديد، واقترب إلى سالم بخطوات رشيقة، وهمس:

- أريد فيلاً يا سالم.

فنظر إليه سالم باستعجاب وقال:

ـ نعم!

ـ كما سمعت.





السـوق

باعة ومشترون. ألوان من أقمشة جاءت من كل البلاد طرزت وزينت معلقة تتطاير، عطور فواحة بالياسمين والفل والقرنفل. فواكه طازجة بألوان ولذة طعم. أعناب ورمان. ماشية من الأغنام والبقر فراؤُها منتفشة كالقطن الأبيض. ماعز صوت رغائه لا ينقطع، وديوك تصيح وحمام يضرب بأجنحته في الأقفاص ويهدل بصوته، وصقور للتفاخر تحذر من يشتريها زينة فلم تخلق إلا للصيد، فغميت أعينها جبرًا وقيدت مخالبها فوق أقفاص حديدية.

ـ هنا الأفضل.

يصيح البائعون مؤذنين لبضاعتهم

ـ الجارية الأجمل.

يتراقصن أمام الأعين.

ـ الأطعم والطازج.

يضعون ما لذ أمام أعين الناس للإثارة.

ـ الأنقى.



ذهب وفضة على صدور زوجات نزلن إلى السوق للبحث عن النقش الأحدث، بيع واشتراء ورنين دنانير يصطك خروجًا من كيس مشترٍ ودخولا إلى كيس بائع. شهوة البطن، شهوة التملك، شهوة كنز المال. شهوات يغرق فيها الكل داخل بحر السوق.

ثم...

دخل السوق ما لم يره أحد من قبل، كلما تخطاهم هدأت الأصوات وذُهلت الوجوه لما ترى الأعين. فيل كبير، خرطومه دهن بالأحمر ونقش رسم على أنيابه التي علقت فيها الأجراس تصلصل، رقبته أحاطتها سلاسل من الورود بكل ألوانها كقوس قزح، ظهره فرشت عليه حُلة مطرزة بالذهب والفضة تتلألأ في أعين الناس المتعلقة أنظارهم بمن فوق الفيل. تاجر هندي بشارب تقوس لأعلى وأسنان بيضاء وبشرة سمراء وجسم ممتلئ فوقه حُلة بكل الألوان، يضع قدميه فوق حاملين من الخشب ثُبتا فوق ظهر الفيل، مُعلق عليه صندوقان كبيران من الخشب بداخلهما أجولة من البهارات الهندية، يعلم البائعون والمشترون أنها من أغلى البهارات في العالم. وكيف يكون استطعام الطعام برائحتها قبل أن تصل لجوفهم؟

التاجر الهندي (علي الزيبق) بخفة وخفاء شد حبلاً مربوطًا في قدمه ففتح الصندوق من الأسفل، فسقط جوال مليء ببهارت الكاري الأصفر، فانفجر وتركه خلفه يتصاعد غباره كأنه سقط سهوًا، فتزاحم عليه بعض البائعين نهشًا وشدًا واغتصابًا.



يتقدم علي الزيبق فوق فيله، وقد وضح أمامه ما يصبو إليه، مبنى شهبندر التجار القابع بقبته المزخرفة العالية آخر السوق، تحتها نافذة يُراقب منها الشهبندر حركة السير. فيه اجتماعاته وفيه تعقد الصفقات.

وصل علي الزيبق فوق الفيل بالقرب من باب مبنى شهبندر التجار الواقف على بابه حارسان بحراب، رمقا الفيل في ترقب، راقبا الناس وهم يقتربون نحو الفيل كأن سيركًا قد نصب. لامست الأيدي أقدام الفيل وأنيابه وخرطومه، الكل تزاحم أمام المبنى؛ حاول الحراس دفع الناس بعيدًا:

ـ أيها الهندي.. اذهب بفيلك بعيدًا.

نظر إليه علي الزيبق بعدم فهم، فرد أحد الناس:

ـ لن يفهمك.. إنه هندي.

فأشار الحارس الآخر بيده أن يبتعد، فأومأ له علي الزيبق بالإيجاب. وعند تحركه أبرز أسنانه باسمًا استهبالاً وأشار للحارس إلى زحام الناس حول الفيل.

ـ ابتعدوا عن الفيل أيها الناس.

صاح بها الحارس وتقدم نحو الزحام لدفع الناس، فاستغل علي الزيبق الفوضى، وفي خفاء شد الحبل الآخر ففتح الصندوقين من الأسفل فتساقطت سبعة أجولة بالبهارات وانفجرت بالألوان، الكمون والكُزبرة الخضراء،



الكُركم بلونه البرتقالي، الفلفل الأسود، الفلفل الأحمر. تطايرت وتصاعدت وغطت المكان كغمامة ملونة، وضع علي كمامته ونزل واختفى في الزحام وغمامة الألوان، واخترق الناس حتى وصل إلى باب مبنى شهبندر التجار مقتربا إلى الحارس الذي أعمته البهارات وأخرجت منه عطسة مُجلجلة.

* * *

ـ ما هذا؟.. ليس هذا صوت بيع ولا اشتراء!

قالها شهبندر التجار استعجابًا لزوريق الجالس معه داخل غرفة اجتماعهم في المبنى، جلسا على أريكتين متقابلتين قريبتين من الأرض مدُثرتين راحة.

ـ دعك من هذا.. لا يوجد وقت.. أريد تركيزك كاملاً.

نظر شهبندر التجار إلى زوريق بكل انتباه فاستطرد الأخير:

ـ هذه أكبر قافلة ستكنزها في حياتك.. كنوز من كل البلاد التي دخلها رجال جبل الموت تم تهريبها إلينا.

ـ منجهة...

أطلقاها الشهبندر فرحًا وقام لتقبيل رأس زوريق حماسة وامتنانًا

ـ اهدأ.



صده زوريق بيده فتراجع الشهبندر مكانه إحراجًا، ولكن لم يمنعه هذا من معرفة أهم شيء بالنسبة إليه فتسرع:

ـ أريد فقط أن أعلم يا سيدي زوريق.. هو...

قاطعه زوريق:

ـ أعلم ما ستقوله.. لا تقلق.. إني لا أريد من القافلة إلا ثلاثة جمال حُمر، وباقي القافلة بعد وصولها يوم الثلاثاء المقبل عند الفجر، وزعها أنت بنفسك على أحبائنا عند الظهر.

ـ منجهة أنت منجهة يا سيدي زوريق.. قل لي يا سيدي أين يتم استقبال هذا الكنز؟

ـ مدخل المشاعل.. لقد تم تأمينه جيدا.

نظر إليه الشهبندر وقد لاح على ملامحه التوتر، فقلق زوريق فقال بنفاد صبر:

ـ قل ما عندك يا شهبندر التجار.

ـ إني خائف من هذا اللص الذي يدعى لموم.. إنه يتتبع خطانا خطوة بخطوة.. ليس وحده.. معه فتاة عرفتها من يدها ورائحتها.

❋ ❋ ❋

انتفضت حواس علي الزيبق المتنصت عليهما خلف الباب بالخارج خوفًا على زبيدة.

* * *

ـ أخائف من لص وفتاته؟!

ونظر زوريق إلى الشهبندر بخسة ثم أردف:

ـ هذه القافلة لا يقدر على سرقتها شخص أو شخصان.

ثم سخر:

ـ رجال القافلة سيأكلون من يقترب إليها أكلاً.

ضحِكا فغطى على ضحكهما الصوت بالخارج، فتوقف الشهبندر عن الضحك وقال وهو يقوم:

ـ لا أقدر.. سوف أقوم وأنظر ما يحدث.

قام الشهبندر بصعوبة لكرش ممتلئ تدلى من خصره. تهاوى نحو النافذة كصخرة مستديرة، وعند رؤية الخارج فتح فاه دهشة ولم يجد كلمات إلا:



ـ تعال يا سيد زوريق وانظر ما يحدث بالخارج!

* * *

علي الزيبق في خفاء ينزل السلم ملتصقًا بالحائط يترقب، حتى وصلت عيناه لحوش مدخل المبنى المكتظ بالناس خناقًا وضربًا وعطسًا، ووجوه تلونت بالبهارات وأطفال فوق الفيل يضحون ويلقون على الناس بالبهارات فوق الرؤوس. الحارسان اختلطا في الناس يحاولان بكل قوة أن يدفعا المتنازعين على أجولة البهارات شدًا وتمزيقًا كقطط تعلم أنها سارقة. اندس علي الزيبق في الزحام حتى خرج من بينهم كغريق وقف على الشاطئ، ثم التفت وألقى بنظره نحو نافذة شهبندر التجار الواقف بجوار زوريق السماك، ينظران إلى الفوضى باستعجاب.



بدايــة النبت

سُنقر الكلبي يقف فخرًا أمام مرآته ينظر إلى شاربه ولحيته يتأملهما وقد نبتت فيهما النبتة الأولى، فابتسم وبحماسة جرد من ملابس نصفه الأعلى ورمى ما خلع تحت قدميه، وتقدم خطوة حتى اقترب إلى الصهريج الناري أعلى مرآته، ناظرًا إلى صدره ليرى أوضح، حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة فرح لشعر صدره الذي سبق شعر شاربه، فطأطأ برأسه على الزجاجة التي اعطاها لله علي الطبيب، الموضعة أمام المرآة. اقتطفها بيده ناظرًا إليها ككنز وجده أخيرًا.



مخبأ العُـياق

علي الزيبق كمم فمه وسد أنفه وارتدى قفازًا، وفتح بحرص جرابًا قماشًا بُطِّن جيدًا من الداخل، مليئًا ببودرة سوداء قبلها كانت وردة تدعى وردة الشيطان. سوداء للناظرين تأخذ من أدرك رائحتها إلى عالمها المظلم. بعناية جرف علي الزيبق بجاروف صغير بعضًا من البودرة السوداء، واضعًا كميات صغيرة في شرائط مقطعة من جلد الماعز، وربطها بقوة حتى لا يوجد منفس.

- يا علي

أتى نداء سالم من داخل غُرفة المرايا واستطرد:

- إني قد انتهيت مما تريد.

أغلق علي سريعًا جراب وردة الشيطان ووضعه في الحائط ونزع كمامته وسدادة أنفه، وتقدم بحماسة نحو باب غرفة المرايا ودلف، ولما دخل انبهر لما صنعه سالم، فقال علي:

- لم أتخيل أنك ستجيد صنعها وتطريزها بهذه العناية أيها الرجل العجوز.

- ولكن يا علي.. لا أظن أنك سترهب عدوك بهذا التنكر.



ـ سترى الليلة يا سالم.

وهمّ علي بارتداء ما طُرز.

* * *

يضحك سالم بصوت عالٍ.

ـ لم أضحك من زمن هكذا يا علي.. أرجوك لا تذهب بهذا التنكر.

وقف علي أمام المرآة وقد ارتدى تنكر النحلة. سروال أسود وقميص تقلم بالأصفر والأسود.

ـ أتضحك؟ سترى في هذه اللية ما ستفعله النحلة!

قالها علي مازحًا ناظرا إلى نفسه في المرآة بنظرة ثقة مفتعلة.

ـ أعطني رأس النحلة.

تقدم سالم حاملاً رأس النحلة المجوف وأدخله في رأس علي.

ـ تنفسك سيكون من موضع أنفها.. من هاتين الفتحتين.

أشار سالم إلى الفتحتين وسأل:



ـ هل تتنفس جيدًا؟

ـ نعم..

خرج صوت علي الزيبق مكتومًا.

ـ وهذه إبرة النحلة

ناولها سالم عصا تم نحتها على شكل إبرة النحلة، ثم دهنها بالأسود.
التقطها علي الزيبق واستعرض بها مبارزة أمام المرآة، وصاح:

ـ سأغرزها في كل من يقترب إليّ.

ثم التفت إلى سالم وطعن في الهواء نحو قلب سالم.

ـ سأغرزها قي قلب الأشرار.. أنا النحلة الطنانة.



الصحراء ـ طريق المشاعل

خارج أسوار المملكة ضُربت المشاعل في الرمال. يتغير ضربها على حسب ما يدخل للمملكة سرًا. هذه المرة رصت المشاعل ناحية الغرب، امتدت أمتارًا لتكون علامة لتسليم القافلة المحملة بما تم نهبه من بعض الممالك التي استعمرها رجال جبل الموت، والمستلم شهبندر التجار المنتظر في حماسة في آخر طريق المشاعل.

ـ حظك يا قاضي القضاة.. حظك.

قالها شهبندر التجار لقاضي القضاة جالسين فوق فرسيهما، فرد عليه قاضي القضاة بابتسامته البلهاء مخفيًا بها تأنيب نفسه عن إبعادها عن عادتها الليلة بالتقلب في الفراش مع إحداهن.

ـ انظر يا قاضي القضاة.. انظر!

قالها الشهبندر لما بدت القافلة تتقدم نحو طريق المشاعل، ثم استطرد:

ـ الخير يتقدم إلينا محمولاً على أعناق الجمال.

فبادر قاضي القضاة:

ـ ولكني لن أُحزن عندي الجمال الحمر الثلاثة! وإذا حدث فعليك أن



تتحمل أنت نفقة أكلهم حتى يأخذهم منك السيد زوريق السماك.

ـ بخيل أَشِر.. لقد تم استلامهم يا حلاوة عند غابة النباشين.

عادت للقاضي ابتسامته البلهاء، فقتلها شهبندر التجار:

ـ ولكن كل قات القافلة سيصبح عندي.

ـ قات! هل في القافلة قاااات؟

انتفض القاضي لعلمه بهذا المخدر الذي طالما أحبه ومضغ أوراقه مضغًا، وتركه يسيل مذاقه تحت لسانه، حتى يثير خياله المتحجر بشهواته ذهابًا وإيابًا.

ـ سأعطيك كل نصيبي من القافلة وأعطني كل القات.

قالها القاضي وترك فاه مفتوحًا لعل الشهبندر يلقي في فمه بعض القات الآن، فضحك الشهبندر وأردف:

ـ اهدأ يا حلاوة.. لا تطمع.. سنتقاسم الليالي فيه معًا، فهو يحتاج الصحبة.. خاصة أنت.

وضحك الشهبندر متذكرًا حلاوة عند مضغه القات، إذ يصبح بعدها بهلوان ومُهرج ليالي سهرهم.



ـ ألا تشم هذه الرائحة يا حلاوة؟

ـ رائحة ماذا؟

ـ رائحة كجيفة ماعز.

تشمم حلاوة في الهواء ثم قال:

ـ لا أشم شيئًا.. لعلها رائحة القات القادمة.

وضحك فنظر إليه الشهبندر باستفزاز.

وراء تل عالٍ يختبئ وراءه علي الزيبق وبجواره سالم، يراقبان تغير لون دخان المشاعل بما وضعاه داخله من جلد الماعز المعقودة بداخله البودرة السوداء. بدا تغير لون الدخان والقافلة ما زالت على بعد أمتار من طريق النار، فقال سالم بتوتر:

ـ هل تظن أن هذه الفكرة ستنجح يا علي؟

ـ لا تقلق.. جلد الماعز ثخين وأكل النيران فيه يأخذ وقتًا.. بالتأكيد سيطولهم دخان البودرة السوداء.. ثم إني ملأت بها المشاعل.. لا تقلق.

خلف علي الزيبق وسالم فرسان وحمار أسود ينفر. نظر إليه علي ليكتم نفره، ثم نظر ناحية القافلة التي تتقدم بالدخول نحو طريق المشاعل.



تعالت فوق أسنام الجمال البضائع العالية من كل الخيرات، تتراقص في أعين الشهبندر والقاضي يمينًا وشمالاً فرفرف قلباهما. فجأة سمعا صوت ضحكة في قلب القافلة، تبعتها ضحكات وضحكات حتى ضحك كل رجال القافلة. بعدها تركوا لجام الجمال، ثم سقطوا على الأرض يتمرغون ضحكًا يبحثون عن أنفاس لضحك لا يريد أن يتوقف.

ـ ما هذا يا علي؟

قالها سالم وهو يضحك بصوت مكتوم لضحكهم، فابتسم علي وقال:

ـ اصبر للقادم.

وخرج علي نحو طريق المشاعل في ثوب تنكر النحلة، ممسكًا العصا الخشبية على هيئة إبرة النحلة السوداء.

ـ ما الذي يحدث يا شهبندر التجار؟

ـ لا أدري!

ـ انظر.

نظر الشهبندر إلى مكان إشارة القاضي حلاوة، فوجد النحلة الكبيرة تدخل الممر.



ـ ما هذا؟!

ـ إنه جان الصحرء تلبس في هيئة نحلة.

فر بعدها حلاوة فوق حصانه منطلقًا، فصاح شهيندر التجار:

ـ انتظر أيها الجبان.

وما كاد يلتفت الشهبندر نحو طريق المشاعل حتى وجد الناس يصرخون ويهربون من أمام النحلة.

ـ إنها تخرج من عينيها نارًا!

صاح بها أحد حرس القافلة وهو يجري بعيدا:

علي وقف أمام آخر وهو يلوح له العصا الخشبية، فصرخ آخر وهو يقول:

ـ لا تقتليني أيتها النحلة!

الكل داخل الممر يهرب ويفر في كل الاتجاهات. شق شهبندر التجار بحصانه طريق المشاعل، وعند وصوله كان قد استنشق ما استنشقوه فظل يضحك وهم يصرخون، حتى صرخ لما وقف علي أمامه، فقال:



لا تلدغيني أيتها النحلة الطنانة!

تركه علي باحثًا في القافلة عن الثلاثة جمال الحُمر.

بيت سالم

طرق على الباب أيقظ زبيدة. نظرت نحو نافذة غرفتها فبدا لها ظلام الليل لم ينتهِ، فقامت مسرعة عند سماع الطرق مرة أخرى. بدا من صاحب اليد أنه طارق خير، ولكن هذا لم يذهب توترها لمن أتى في هذا الوقت، فخرجت مسرعة نحو باب الدار.

ـ من؟

رد الطارق عليها بدفع عملة ذهبية من تحت عقب الباب. لما استقرت تحت قدمي زبيدة دُهشت فأمسكت بها تتأملها. سريعا جرت نحو طاقة في جدار الباب عليها حديد مُفرغ ناظرة للخارج. وجدت عملاقين من البضاعة فوق جملين تحت مشعلين معلقين على هودجيهما. هرولت سريعا نحو الباب وفتحته ووقفت أمامها تستوعب الكنز الذي أمامها، وهمست لها نفسها: إن العمر كله لن يكفيها هي وململوم ليجمعا كل هذا المال، حتى إنها شكت في توزيعه على الفقراء لكثرته.

ـ اكشف عن نفسك يا مللوم.

هكذا ظنت أن مللوم هو من قام بذلك

فخرج علي الزيبق من وراء الجدار بتنكر النحلة، فرجعت بظهرها ناظرة تستوعب ما تراه، ثم تبسمت فبادرها علي الزيبق:



- هذه هدية لكِ وللملوم.

- كيف عرفت سري؟ ومن أنت؟

- لا يهم من أنا الآن.. وأحب أن أطمئنك، فإني لا يختلف سعيي عن سعيك، لكن لي طُرقًا أخرى.. أخفي حمولة البضائع هذه في سرعة، فهي تحت تصرفك أنت وململوم.

تقتربت إليه زبيدة بفضول لتعرف من الذي تحت القناع.

- ألا يكفيك أني لا أرى وجهك. أخرج ما في فمك لأعرف صوتك الحقيقي.

- كل شيء في وقته.. تحركي قبل تنفس الصباح.. أهم جمل هذا...

وأشار نحو الجمال خلفها.

- أيها؟

لم تجد ردًا فالتفتت إليه فوجدت الهواء.



حصن جماعة الذعر.

ليلة يبدأ فيها هلال رحلة اكتماله ليصبح قمرًا، فعمت الأرض ظُلمة كاد ينتهي فيها ملل وغفوة حراس أبراج أسوار حصن جماعة الذعر. انتفضوا لما سمعوا صوت نهيق حمار لم يروه لسواده في سواد الليل، واختلط بنهيقه صوت إنسان يصرخ:

ـ الزيبق.. الزيبق

فتح باب حصن جماعة الذعر، وامتدت المشاعل في أيدي الجند ورفعت السيوف حتى أصاب نورهم الحمار الأسود المربوط فوقه خلافًا شهبندر التجار، الذي لم يتوقف عن الصراخ باسم الزيبق هلعًا. ضحك الجند عندما وجدوا وجه نحلة مرسومًا على وجهه. كتموا الضحك عند قدوم كبير جماعة الذعر خلفهم، أفسحوا له الطريق. وقف ينظر في استغراب. وجد صندوقًا خشبيًا معلقًا في رقبة الحمار، فأمر كبير جماعة الذعر:

ـ فك الصندوق وافتحه.

تقدم أحد الجند فنزعه وقدّمه بين يدي كبير جماعة الذعر وفتحه أمام عينيه، ففاحت رائحة القات في أنوف الجند فانتشوا بفرح أخفوه. أمسك كبير جماعة الذعر ورقة منه يتأملها وهو يعرفها. حملها وتقدم نحو الشهبندر ووضعها أمام عينيه وسخر:

ـ قات؟! تدخل البلاد القات. ليلة أبيك...

فقاطعه الشهبندر صارخًا:

ـ الزيييبق.



قصر سنقر ـ العرش

ـ خسيس!

صرخ بها سنقر غضبًا، فأصابت أعمدة بهو القصر وترددت في آذان الواقفين، وأولهم علي الطبيب الواقف بجوار كرسي عرش سَنقر كحارس. لم يبد أي اهتمام بهذا الغضب، بل ظل يرمق بعينيه سنقر الذي قام ونزل من فوق الدرجات السبع نحو كبير جماعة الذعر، الذي أتى إليه بأخبار الصباح.

ـ كلب.. عض بأنيابه النجسة اليد التي وضعته في مكانة لا يحلم بها.

استقر سنقر أمام كبير جماعة الذعر وأردف:

ـ أريدك أن تضعه في أحقر السجون.. أريد أن يفضح أمره في كل حارة وكل زُقاق.. أريده أن يصبح عبرة لكل الحاشية.

تناثر من فم سنقر رذاذ الضيق غير مبال بما طال منه وجه كبير جماعة الذعر، فالتفت سنقر في حدة شادًا عباءته الطويلة وتحرك نحو عرشه واستطرد:

ـ بياع القات.. شهبندر التجار.



صعد السلم بهدوء نحو عرشه. نظر إلى علي الطبيب الواقف بجوار العرش فتلاقت الأعين فأومأ علي الطبيب لسنقر بأن يهدأ، ولما جلس على العرش خفت صوته بالكلام لعلي:

ـ سأهدأ أيها الطبيب.. سأهدأ.. ولكن عند الإمساك بسارق القافلة.. المحظوظ ابن المحظوظة.. كنز وقد وقع عليه.

ثم صاح سنقر في الجمع تحت العرش:

ـ قلتم لي ما اسمه؟

في سرعة رد أحد الجند:

ـ الزيبق.. الزيبق يا درك المملكة سنقر.

واسترسل:

ـ الكل يتحاكى بأنه من الجان.

فرد سنقر:

ـ جان أو إنسان.. يُمسك به الليلة.



وأشار بيده حانقًا:

- فليخرج الجميع.

فتحرك الجند أمام كبير جماعة الذعر خروجًا

- انتظر يا كبير جماعة الذعر.

توقف واستدار بهدوء لأمر سنقر الذي تكلم بعد خروج الجند:

- لم تخبرني بمعلومات عن الشهبندر.. ومن أين أتت إليه القافلة ومن يعاونه؟

- سيدي سنقر.. هو في حالة من الجنون يصرخ ويضحك ويبكي.. انتظر حتى يذهب ما في دمه من تخدير.

- سأنتظر.. أين سيذهب؟ ولكن عند إفاقته أخرج منه كل المعلومات.

- بالتأكيد.

قالها كبير جماعة الذعر بثقة فأشار له سنقر بالذهاب. نظر سنقر إلى علي الطبيب ثم ابتسم وتكلم بامتنان:

- أتعلم يا علي.. أكثر شخص يرى عمله في هذا القصر أنت.

نظر إليه علي ممتنًا. نظر سنقر نحو الباب فتأكد ألا يوجد أحد سوى الحارسين عند الباب، ثم أنزل تاجه وطأطأ رأسه لعلي الطبيب وقال:

ـ أترى يا علي؟ أتر؟ لقد عاد كل شعري!

قالها سنقر بفرح. استقبلها علي بشرود عندما نظر إلى رقبة سنقر المُطئطئة عارية أمامه، فذكرته بطلب الدنف بقتل سنقر الكلبي، فتبسم وطالت ابتسامته دون تعليق على سنقر، حتى إن سنقر أعاد القول:

ـ أترى يا علي؟!





جزيرة المنارة

استقرت مركبتان محملتان ببضاعة أمام صخرة الجزيرة. تتراقصان على سطح الماء فرحًا لغنيمة هي الأكبر للدنف ورجاله، أرسلتها إليهم زبيدة ومعها رسالة:

سيدي الدنف...

حركت نسمات الصباح أطراف الرسالة بين يد الدنف الواقف أمام سور المنارة، تاركًا أمواج البحر تضرب من تحته في صخر المنارة ضربًا، فيهدر الماء من حولها هدرًا، وأعاد القراءة لما ثبتت الرسالة من حركتها بالهواء.

سيدي الدنف:

ـ أحببت أن أرسل إليك نصف ما غنمنا، وأظن يا سيدي أن هذه أكبر غنيمة نتحصل عليها، ولن تصدق سيدي.. ما أرسلته إليك هو النصف فقط.. وعند وصول رسالتي أكون أنا ولملوم قد وزعنا على الفقراء والمساكين النصف الآخر.. أظن أن ما سيصلك سيساعدك على صنع سلاحك الذي ستفاجئ به المملكة، وتعجل بخطتنا التي طالما منعتنا قلة المال من تنفيذها، وأود أن تعلم أن هناك شخصًا يتحاكى عنه الجميع في المملكة، يقال إنه من الجان ويسمى الزيبق، هو من وضع أيدينا على كل هذا الخير.

* * *



- هل من ضروري أن تحكي للسيد الدنف عن هذا الشخص؟

قالها لملوم بغيرة. قبلها وقف خلف زبيدة دون شعور منها فأرهبها، فنظرت إليه بامتعاض وردت:

- ومن غيره فعل ذلك يا لملوم؟

•

نظر إليه ولم يجد ردًا، فذهب لإتمام عمله وإحصاء ما تبقى داخل مخبئهم. غار في جبل. اختتمت زبيدة رسالتها:

- وسلامًا على من رباني على الشجاعة.

ابنتك زبيدة.

طوى الدنف الرسالة مفكرًا في هذا الشخص الذي يُدعى الزيبق وسره. ولكن لم يطل تفكيره وتحرك ناحية الجزيرة ينظر إلى سلاحه المختفي بين الأشجار، وقد أصابته مما جاء له من مال حماسة لإتمام سلاحه، الذي حان إتمامه ليفاجئ به المملكة كلها.



جناح علي الطبيب

حتى الظهيرة يتقلب علي الطبيب في فراشه، وقد أغلق من حوله ستائر النوافذ بعناية. فُتح الباب عليه عنوة وتخطت الأقدام غضبًا وفتحت الستائر بأيادٍ متوترة فدخلت الشمس وصبت أشعتها فوق وجه علي الطبيب. في ضيق فتح عينه بصعوبة واضعا يده أمام الضوء ملتقطًا من فعل ذلك، فوجد جسمًا يقف أمام النافذة لم ير الا رسمه في نور الشمس، أمه.

- استيقظ...

اعتدل علي بنصف جسمه

- أصبحت كسولاً.. تغيب تغيب ثم تعود ولا أراك إلا نائمًا.

فنظر لها علي باستغراب وسأل:

- ما بك يا أمي؟! لمَ هذا الضيق الذي أنت فيه؟

نزل من فوق سريره وتقدم إليها ووقف:

- القصر وتم الرجوع إليه!

رمقته بتساؤل لم تفصح عنه، ولكن قالته دون مباشرة، ونظرت إليه



بقوة وتهدج صوتها بالكلام:

- أريد أن يرجع لي علي الذي ربيته.. وأنت ليس هو.. أنا أعلم ذلك جيدًا.. بل متيقنة! من أنت؟ ومن الغريب الذي رجعت به؟

- لعل الغريب ليس أنا يا أمي.

صمت برهة ناظرًا إلى عينيها، ثم تخطاها نحو مرآة غرفته ناظرًا إلى ظهر أمه فيها، واستطرد:

- ولعلي أنا أنتظر أن تعود إليّ فاطمة.. أمي.

انتظر أن تلتفت إليه ليرى وجهها في المرآة. لم تفعل فأردف:

- فاطمة زوجة حسن رأس الغول!

أسرعت بالهروب نحو باب الخروج المتلصقة فيه المرآة، وأمسكت مقبض الباب بقوة وفتحته. وقفت على أعتاب باب ابنها رافضة كل ما سمعت، وأصاب بؤبؤ عينها ابنها دون التفات، وقالت له بحدة:

- فاطمة زوجة حسن رأس الغول ماتت من زمن!

خرجت وأغلقت الباب خلفها بقوة في وجه ما يريده علي حسن رأس الغول.. عودة أمه.



الحـــواري والأزقـــة

أمام مخبز فُرنه انطفأ وطاولات خبز لم يمتلئ جوفها بالعجين من شهور، وصاحب الطاولة جائع عاجز أمام باب مخبزه المفتوحة أبوابه كامرأة عجوز تموت.

- الزيبق.. ضربته الأولى كانت في كِرش شهبندر التجار.. أكبر كِرش في المملكة.

قالها صاحب المخبز فرحًا متشفيًا فيمن يسرق البلاد، فرد عليه صاحبه مازحًا:

- أخطأت يا صاحبي.. لا يوجد أكبر من كِرش سنقر الكلبي.

فضحكا بصوت عالٍ، وفجأة كتموا ضحكهما عنوة ونظرا إلى بعضهما متناسيين ما فعلاه، ثم نظرا حولهما بترقب خائفين يبحثان عني أيٍ من رجال البصاصين، لعل أحدهم مختبئ وراء أحد الجدران.

* * *

- يا أمي إنهم يقولون إنه بطل طويل عريض مفتول العضلات.

قالتها فتاة لأمها وهما تتحركان في سوق شحت فيه الخضراوات



المعطوبة وضعف فيه نداء الباعة، ولم تدخله الفتاة وأمها للاشتراء؛ إنما لأنه الطريق المؤدي إلى بيتهما. ردت الأم:

ـ أما آراه حقيقي يا بنيتي؟

فذهبت الفتاة إلى موضع نظر أمها المحدقة بالنظر إلى عربة في السوق. لم تفطن الفتاة إلى ما تعنيه أمها، فسألت إلامَ تنظر أمها وظنت أنها تنظر إلى الزيبق نفسه، فسألت الفتاة:

ـ ما الذي تنظرين إليه يا أمي وتتساءلين عن حقيقته؟

ثم أشارت الأم إلى ما فوق عربة سوق الخضراوات.

ـ أهذه كوسة خضراء حقًا؟

تمتمت الفتاة بغيظ:

ـ يا أمي أقول لك الزيبق البطل الهمام فتقولين لي كوسة! هيا يا أمي.. هيا إلى البيت.

وشدت يد أمها وأسرعت بها الخطى للخروج من السوق، واستطردت الفتاة في حنق:

ـ المال امتلأت به سيلاتك لتفكري في الكوسة؟!

* * *

ضربة كرباج لاسعة، تردد صوتها في الهواء من يد عربجي فوق عربة بلا حصان أو حمار داخل اسطبل.

ـ أسمعتِ هذا الصوت؟

قالها العربجي لزوجته.

هذا ما فعله الزيبق في شهبندر التجار، ولكن القادم لسعات ولسعات.

ـ جننت.. إنك حقًا جننت!

* * *

ـ فليأكل الجميع فرحًا.

صاح بها الفطاطري، فاجتمع الناس من حوله فرحًا.

ـ فليأكل الناس دون مال بشارةً بظهور البطل.. الزيبق.



الأطفال يتزاحمون من حوله أكلاً...

ـ فطير بالعسل والسُكر الأبيض.. وغدًا مثله.. فإني رزقت بجوالين من الدقيق أمام باب بيتي مع ظهور البطل.. جوالان من الدقيق الأبيض الناصع.. فلتأكلوا فرحًا، وبعدها...

ثم صاح مازحًا:

ـ امسحوا أفواهكم جيدا حتى لا يرى جماعة الذعر وجماعة البصاصين أثر فرح الفطير على أفواهكم.

ضحك الجميع بفرح.

* * *

يطوف علي الزيبق في الحواري والأزقة ليرى ردود أفعال الناس، إلى أن انتهى مطافه عند إحدى الحارات. تجمع لبسطاء من الناس حول بائع العرقسوس، بين إصبعيه يصطك صوت صاجين من النحاس في بعضهما فرحًا. يصب العرقسوس من الإبريق المتعرّق بشرابٍ بارد المربوط على خصره، يتدلى به صبًا في الإناء بخفة كأنه يراقص حبيبته. يغني صائحًا:

ـ اشربوا وارتووا فإني شربت وارتويت من الزيبق.

تقدم نحوه الزيبق ملثمًا يقترب إلى الجمع المتزاحم حوله يزداد. رجال



ونساء وأطفال وفتيات. حتى اقترب ناظرا إلى الأطفال، وعلى بعد خطوتين من الجمع التفتت دون إرادة فتاة فالتقت الأعين. عين زبيدة الفرحة التي انقشعت فرحتها عند رؤيته، وعين علي الطبيب الذي تسمر مكانه. فتشفت فيه بغضب:

ـ الكل يأكل ويشرب ويضحك فرحًا بالبطل.. الزيبق.. بالتأكيد سمعت عنه.

نظر إليها علي دون رد، فهجمت وهي تقترب إليه:

ـ أريد لأذنيك أن تسمعا ضحكاتهم وعينيك أن تمتلئا بفرحة الفقراء والغلابة الذي خرجت منهم!

ثم تقدمت خطوة نحوه بحدة واستطردت:

ـ سيأتي الوقت الذي تتحسر فيه أنك اخترت سنقر الكلبي و...

قاطعها:

ـ زبيدة..

قاطعته:



ـ لا أريد أن أسمع منك كلمة واحدة.. خسارة فيك ما فعله الدنف معك.. قلت له إنك جبان وخسيس ولم يصدقني.

ـ كل ما أريد أن أقوله يا زبيدة...

ـ لا تقل شيئًا

ومدت يدها له بآنية العرقسوس...

ـ اشرب وافرح مع الغلابة.. وانتظر درك المملكة القادم الزيبق...

ثم سخرت:

ـ لعلك تصبح طبيبه الخاص.. أمسك

أخذ منها كوب العرقسوس

ثم مضت وتركته واختفت عن مرمى بصره. أخذ رشفة من العرقسوس مفكرًا، وفجأة ظهر تحته طفل يصيح مضخمًا صوته:

ـ أنا الزيييبق.

نظر علي إليه، وجده مقلدًا الزيبق، يرتدي لونين مقلمين الأصفر والأسود مثل لون النحلة، وفي يده عصا صغيرة سوداء على شكل إبرة النحلة، فصاح

فيه علي مقلدًا الطفل مضخمًا صوته:

ـ أنا الزيييبق.

فنظر إليه الطفل مخضوضًا وجرى.





قلعة السجن ـ نباش الحائط

زنزانة عطنت جدرانها بالرطوبة، جلس في ركنها شهبندر التجار مقيدًا بسلاسل صدئة. إلى الآن لم يعِ أين هو. أصبح صوته متحشرجًا خافتًا يخرج بتعب:

ـ زيييبق.. عيييبق.. نيييبق

يردد الشهبندر ما تمكن وعيه من نطقه من حروف تحت لسانه، يستمع إليه عجبًا مساجين. سرقوا جبرًا وجوعًا، ولولا أنهم مقيدون بالسلاسل لأبرحوه ضربًا لما امتص من خيرات البلاد فتسبب في فقرهم وسجنهم، فنظروا إليه تشفيًا وغيظًا وودوا أن يخرجوا غضبهم فيه، وإذا كانوا يرون خلف الجدار أو يستمعون إلى الزاحف نحوهم من نافذة الزنزانة كجية لهدأوا؛ نباش الحائط صاعد بمخالب من حديد في القدمين واليدين ينهش جدار السجن نهشًا، يصعد في سرعة ملثمًا تخفى في ثوب أسود. وصل إلى طاقة سُيجت بالحديد بخفة. أخرج من جرابه المربوط على خصره قارورة من نحاس خصصت لما حُبس فيها. فتح الغطاء بعناية وعند كل سياج من حديد صب على الحجر أسفله. تشقق الحجر وفار كزبد البحر. المادة تحفر في الحجر حفرًا حتى سهل على النباش إخراج السياج الحديدي من الحجر. في خفة أصبح وسط زنزانة السجن ثم بحث عن شهبندر التجار وتقدم نحوه بثقة مخرجًا سيفين مقوسين، استعرض بهما أمام أعين الجميع

ثم توقف ببرود قاتل محترف، وقال دون أن يلتفت للمساجين:

- أغمضوا أعينكم أيها المساجين...

فعلوا خوفًا، وما كادوا حتى سمعوا ضربة سيف فوق عنق الشهبندر، فسقط رأسه بجوار يده المغلولة بالجنازير.





حصن جماعة الذعـر

يدخل كبير جماعة الذعر ثُكنته ويعلق سيفه بجوار الباب. يخفض الإضاءة بإطفاء سبعة مشاعل من أصل عشر، ليس توفيرًا ولكن لراحة عينيه اللتين ما كاد يغمضهما فوق أريكته المدثرة راحة حتى سمع صوت نحلة تطن في الثكنة، فلم يؤرقه صوتها كما حدث من قبل، بل ابتسم قائلاً:

ـ ما أهديتني به يا زيبق مقبول.

فقال الزيبق مازحًا:

ـ لم نبدأ بعد يا كبير جماعة الذعر، ما فعلناه هو هز عش من عشش زوريق فقط.

فرد كبير جماعة الذعر بخبث:

ـ وعش سنقر؟ إنه في حالة من الغضب.. أنت مطلوب له قتيلاً.

ـ غير متفاجئ.

ثم صمت الزيبق برهة واستطرد:

ـ ثلاثة جمال حُمر كانت في القافلة اختفت واختفى معها قاضي القضاة.



انتفض كبير جماعة الذعر من فوق أريكته.

ـ حلاوة قاضي القضاة؟! كان مع شهبندر التجار؟

بحث كبير جماعة الذعر عن مكان الزيبق فوجده جالسًا على كرسي خشبي في ثوبه ولثامه الأسود، تحت حائط رقاب الغزلان المحنطة. فرد وهو على حاله:

ـ نعم حلاوة كان مع الشهبندر.

ـ الرِمة.. حلاوة الأقرع.. سوف آتي به هنا وأخرج ما يخفي من سر.

ـ سينكر وستأخذ وقتًا حتى يخرج ما يعلم.

قام الزيبق من مكانه وأردف:

ـ أريدك أن تفسح لي الطريق لدخول بيته.

نظر إليه كبير جماعة الذعر مُفكرًا.



الصحراء ـ خارج المملكة

ليلة أخذت من الرمال وبدلت أماكن التلال؛ لا يعلم سر تعرجاتها وتنقلاتها إلا حيوانات الصحراء والإنسان في القوافل، حيث يستظل بها من حر الشمس أو يستغلها مخبأً من الأعداء في الحروب. أو مثل لملوم الراصد في جُنح الليل يستكشف يتتبع زوريق حتى رآه يدخل غابة نابشي القبور، ومن حوله يحمل المشاعل رجال جبل الموت، حتى اختفوا وسط أشجار غابة النابشين التي لا يجرُؤ على دخولها إلا الشياطين أصحاب النابشين.

ـ رجال الموت! غابة نابشي القبور! زوريق السماك!

جالت وضربت محادثة لملوم لنفسه بداخل رأسه محاولا استيعاب ما يرى، وربط ما تشتت في عقله.

فلم يجد إلا أن يقوم ويذهب خلفهم، فاستجمع شجاعته وهم بالتحرك...

ـ أترى من هنا جيدًا؟

صوت جهوري غليظ أتى من خلف لملوم، فالتفت مذهولاً فرأى فوق رأسه ثلاثة من رجال جبال الموت، عرفهم بأقنعتهم النحاسية المنعكسة عليها مشاعل في أيديهم فأظهرت ملامح نقشت على أقنعتهم بحرفة، فأصبحوا جميعًا يحملون وجهًا واحدًا بالكره والغلظة والغضب.



بيت قاضي القضاة

ناموسية سوداء أحاطت سرير قاضي القضاة، النائم فوقه بجلباب فضفاض من الحرير الأحمر وطاقية صغيرة سوداء و«سكسوكة» محناة بلون غروب الشمس حول فمه الخارج منه شخير لا يزعج صاحبه، الغاطس في النوم آمنًا بحرس من جنود الذعر بالخارج، حيث حان تغيير ورديتهم، فجاءت العربة تجر قاطرة من خشب استطال على عجلات أربع فارغة من الجند، وقد أتى الأمر من كبير جماعة الذعر بسحب الحرس جميعًا، وقبل أن تتحرك العربة ذهب أحد الجند وفتح باب بيت قاضي القضاة بهدوء وتركه ليستقبل الزائر.

فوق شجرة الجميز المطلة على بعد أمتار من بيت القاضي، اختبأ الزيبق في تنكره الجديد، وعند رؤيته انصراف الجند قفز بخفة من فوق الشجرة مرتديًا نفس ثوب نوم القاضي، كأنه توأمه حتى في الشكل. تخطى بمرح يصفر نحو باب بيت قاضي القضاة كطفل مرح نحو لعبته. توقف عن الصفير عند الدخول وتوغل حتى وصل لحوش البيت. فوضى كساحة عراك انتهى بين القاضي والجواري، قشر الفستق واللوز، آنيات الخمر المنقلبة والمنكسرة، شالات فتيات سقطت على سلالم تؤدي نحو الدور العلوي، آخرها ممر به ثلاث غرف. لم يتعب الزيبق في البحث. دله شخير القاضي مناديا فدلف بخفة إلى داخل الغرفة ولم يلبث أن أغلق الباب حتى صاح الببغاء على الحامل بجوار النافذة:



ـ قاضي القضاة.. حلاوة.. قاضي القضاة نائم...

ونظر الببغاء نحو القاضي النائم:

ـ قاضي القضاة مستيقظ...

ونظر إلى الزيبق، فأشار له الزيبق بالصمت، فضحك الببغاء وصمت خبثًا. سريعًا وصل الزيبق فوق رأس قاضي القضاة حلاوة وأسدل ستار الناموسية السوداء، فصاح الببغاء:

ـ لا توقظ حلاوة يا حلاوة.

أخرج الزيبق في غيظ خنجره وهدد الببغاء بذبح رقبته، فصمت وأعطى ظهره للزيبق.

انكب الزيبق فوق حلاوة وأمسك تلافيف حريره الأحمر حول رقبته. وضع الخنجر على أوداجه النابضة سُكرًا:

ـ حلاوة...

انكتم صوت شخير حلاوة في خيشومه، فانسد الهواء ففتح عينيه ليجد كأنه ينظر إلى المرآة، فتهته مذعورًا:



ـ أنا! أنت! من؟ من أنت؟

ـ أنا أنت.. لقد توفيت يا قاضي القضاة.. وأنا عملك السيئ

ـ لا لا لا.. أنا مت؟!

ضحك الببغاء فانتبه وأفاق حلاوة واستجمع شتاته ومكانه فبادر:

ـ الزيبق!

قالها كالواقع في الفخ وتلجلج وهو يستطرد:

ـ إذا أردت مالي فهو لك.. كل ما أملك.. ولكن لا تقتلتني!

نظر إليه الزيبق ساخرًا فتابع حلاوة:

ـ إني أخبئ ذهبًا لا يعلم مكانه غيري...

ـ أنت غبي يا حلاوة.. تعتقد أني بعد أن سرقت القافلة وما فيها سأنظر إلى مالك وذهبك!

ـ فلتأمر وكل ما تريده مُجاب.

ـ أين الجمال الحُمر الثلاثة؟

نظر حلاوة لعلي نظرة بلاهة، فقال علي بحدة وهو يمسك بتلافيف ثوبه حول عنقه بقوة:



ـ انطق.

كح وبح فخفف الزيبق يديه لفك تلافيف الثوب حول عنق القاضي

ـ لا أعلم يا زيبق.. لا أعلم!

في خفة أخرج علي قارورة بها مياه نار وقطر بجوار رأس حلاوة فوق الوسادة فإذا بها تحترق، وتزحف النيران نحو وجه حلاوة.

ـ حريقة.. حريقة.. حريقة.

لم يبال علي بصراخ الببغاء، وظل ممسكا برأس حلاوة المتقدمة نحوه النيران لتصيب «سكسكوته» احتراقًا:

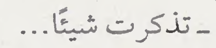
ـ أقسم لك يا زيبق إن...

ـ تُقسم؟!

قاطعه الزيبق واستطرد ساخرًا:

ـ أتظن أني أصدق قاضي القضاة في قسمه؟

فنظر إليه حلاوة متذكرًا في تيه، وقبل أن تصل النار إلى وجهه صاح:



ـ تذكرت شيئًا...

رفع الزيبق رأس حلاوة سريعًا.

ـ كل الذي أتذكره أن الشهبندر قال: سيتم تسليم الثلاثة جمال الحُمر في غابة نباشي القبور.

نظر إليه علي مفكرًا وردد متمتمًا متسائلاً:

ـ غابة نباشي القبور؟!

ـ لصوص الجثث.. طاحني العظام.

ثم رفرف الببغاء بجناحيه هلعًا وصاح

ـ نابشو القبوووور.



غابة نابشي القبور

ليلة ضبابها أحاط الغابة كأشباح تطوف حول وبين أشجار غابة نابشي القبور، كأنها حرس يترقب أي دخيل غريب، تصرخ فيها رياح لها صفير يضرب الجذوع فتهتز فروع عارية تلامست وتشابكت كأن كل الأشجار رأس شيطان. وقف أمامها علي الزيبق متحديًا في ردائه ولثامه الأسودين، وفوق ظهره سيفه وفي يده شعلة تتوهج نارًا. اندس دخولاً في الغابة يترقب بشوائب خوف من قصص سمعها وهو صغير عن غابة نابشي القبور.

توغل علي الزيبق في الغابة باحثًا يترقب، حتى وصل إلى البقعة مقطوعة الأشجار. بقعة رسمت دائرة كساحة مصارعة رومانية واسعة. وقف الزيبق على حدودها. الظلام يخيم على كل شيء فتراءت له خيمة كبيرة انعكست من نيران للتدفئة بداخلها خيالات على جدرانها لأجساد أشخاص يتحاورون.

أطفأ الزيبق شعلته في تراب الأرض، وطوى الخطى جريًا نحو الخيمة حتى استقر خلفها. همهمات كلام تصل إليه غير واضحة من داخل الخيمة؛ اقترب أكثر في حذر فتراءت له أمام الخيمة الثلاثة جمال الحُمر مربوطة في شجرة، فترك المهمهمين وذهب للجمال الحُمر وقد قرر تحريرها وأخذها، وعند الفك سمع بجوارها شخصًا يتأوه. توقف عن فك قيد الجمال وتتبع حتى رأى صاحب الصوت. لملوم.

مربوط بشجرة دامي الوجه. سريعا انقض وبدأ الزيبق في فك قيده.

خرج زوريق في هذه اللحظة من الخيمة وخلفة رجال جبل الموت حاملين المشاعل، فطالت بضوئها الزيبق فانتبه ورفع سيفه نحوهم، فأخرجوا سيوفهم.

ـ أتعلم؟

قالها زوريق بهدوء متقدمًا نحو الزيبق بخطوات واثقة مغرروة وتابع:

ـ كنت أتمنى أن أتعرف عليك من زمن.

توقف زوريق بجوار جمل من الجمال الحُمرِ ودس يده في ما أخفى فوق سنامها، وقبض منه ما قبضة يسيرة.

ـ الزيبق!

وأصبح زوريق على بُعد خطوات منه.

فجأة خلف علي سقط لملوم الذي فك قيده، فالتفت إليه ثم عاد سريعًا لزوريق ففاجأه بقذف ما في قبضة يده في وجهه. البُودرة السوداء ملأت وجه الزيبق. استنشقها غصبًا وغزت عينيه ففقد الرؤية، فهجم رجال جبل الموت عليه لقتله، فرفع زوريق قبضته إشارة لهم بالتوقف فتسمروا مكانهم. وتقدم زوريق نحو الزيبق بغرور منتشيًا كقوله:



ـ غبي..

أنفاس الزيبق تتسارع. يجري المخدر في دمه. يشعر بدوار. يحاول أن يستجمع شتات رؤيته في تيه وفقدان توازن.

ـ دخلت عشي بقدميك.. بشحمك ولحمك يا زيبق.

يتقلب زوريق في عين علي الزيبق. يظهر مرة إنسانًا ومرة كعنكبوت أسود ضخم فيتراجع ويبتعد مذعورًا وقد اتسعت حدقتاه حد التفتق.

ـ قل ما ترى يا زيبق؟ كيف تراني؟

ضحك بعدها زوريق بصوت عال. الزيبق يحاول أن يستجمع نفسه بلا جدوى.

ـ أود أن أعلم.. كيف تراني؟

يبتعد الزيبق بظهره، فصرخ زوريق بغضب:

ـ قل لي كيف تراني؟!

علي الزيبق يسقط على ركبتيه. يمسك على أنفاسه التي تخور. ينظر إلى العنكبوت الهاجم عليها، يستجمع وعيه بعيدا عن المخدر بإغماض عينيه



وفتحهما، فيعود في نظره حقيقة زوريق الواقف أمام علي.

اغتنم الزيبق الفرصة، قام بقوة وأمسك بزوريق كدرع وأخرج سيفه ووضعه على رقبته مهددًا بقتله، فهجم رجال الموت فأشار زوريق بعينيه ألا يتقدم أحد، فتسمروا مكانهم رافعين سيوفهم. قال زوريق ببرود:

- نهايتك هنا أيها الزيبق.

يتراجع الزيبق نحو الأشجار بظهره ناظرا إلى رجال الموت المتحركين معه نحوه، فتحولوا في طرفة عين من الزيبق إلى عناكب.

- نهاية طبيعية تليق بك.. هنا في غابة نابشي القبور.

قالها زوريق وأنهاها بضحكة ساخرة فألقى به الزيبق نحو العناكب، واختفى جريًا وسط الأشجار، فصرخ زوريق:

- أين ستهرب يا زيبق؟ غابة النباشين ستكون قبرك.

وأشار لرجال الموت بالقبض عليه، فهجموا رافعين المشاعل بيد وباليد الأخرى حاملين سيوفًا متعطشة لدماء الزيبق.

وسط الأشجار الزيبق يجري في الطريق تائهًا يتخبط، يحاول أن يتمالك جسده، أن يبعد هلاوسه. فروع الأشجار تتحتضه تقييدًا فيقطع أذرعها

بسيفه، فيخرج من خياله ليجد أنه كان يحارب الهواء. يقوم يتخبط يستند على الأشجار ويقف ويسقط.

- علي يا طبيب...

يسمع صوت أمه تنادي؛ يبحث تائهًا متعرقًا نابضًا قلبه بقوة. لا يجد أمه. حتى يلمحها تخرج من وراء شجرة مرددة ما قالته له وهو صغير:

- الشر دائمًا هو الذي ينتصر.

يصرخ علي

- لا يا أمي...

يتردد صوت صراخ الزيبق في أنحاء غابة نابشي القبور، فسمعهُ رجال جبل الموت فتتبعوا الصوت، وسمعهُ نابشو القبور فسال لعابهم لوجبة عظام فصرخوا فرحًا في أنحاء الغابة، وفكوا قيد كلابهم المسعورة وأطلقوها أمامهم بحثًا عن الفريسة.

فلما سمع على صوت نباحها قاوم ووقف فوجد أمامه زبيدة توبخه:

- عشت خسيسًا وستموت جبانًا!

ابتعد علي الزيبق عنها بخطوات فخرج له من راء شجرة سالم يردد:

ـ اسمك علي الزيبق!

ينقلب سالم في لحظة إلى الدنف ويأمر:

ـ اقتل سنقر!

يسقط علي أرضًا. يفتح عينيه غصبًا فيرى قدمي طفل يتقدم نحو رأسه، تتحطم تحت خطواته أوراق شجر أصفر ذابلة، فرفع علي الزيبق رأسه لصاحب الخطوات فوجد نفسه وهو طفل، نصف وجهه شر والنصف الآخر خير. جلس الطفل علي فوق رأس الزيبق ومسح عليه ورفعه نحو أبيه حسن رأس الغول الواقف مبتسمًا يتساقط من فوقه ورق الشجر:

ـ أنت اخترت أن تكون ضد الخير والشر.

أتى الصوت ممن يحمِل رأس علي الزيبق، فنظر فوجد الولي يبتسم، ثم وضع علي الزيبق رأسه بهدوء على الأرض وقام، فخرج من بين الأشجار رجال جبل الموت. أحاطوا بعلي الزيبق الجثة الهامدة أمامهم. بعدها خرج نابشو القبور ممسكين الكلاب النابحة جوعًا. نظر إليهم رجال جبل الموت وأنزلوا سيفهم إشارة ليقوموا هم بالمهمة، فترك نابشو القبور حبال الكلاب الممسكين بها فانطلقت نحو علي الزيبق.

ـ أمسك طرف العصا...

قبل أن يقولها الولي مد طرف عصاه إلى علي الزيبق ليمسك بها، ومع وثبة الكلاب مُبرزة أنيابها المسعورة ناشبة مخالبها نهشًا في الهواء، لمس علي طرف العصا.





بيت حسن رأس الغول ـ غرفة علي

علي الزيبق يستفيق، يفتح عينيه بضعف مستكشفًا أين هو.

خيوط دخان أزرق امتزجت بأشعة شمس صباح تسرب نوره من نافذة غرفته الصغيرة، اختلط به صوت تغريد طيور أنعشَ حاسة سمع علي الزيبق بدفعة من الإفاقة. فوجد سالم جالسًا بجواره على حافة السرير، بين يده مبخرة يضع فيها عشب دواء يطرد ما جرى في دم علي الزيبق من تخدير.

ـ نحمد الله على سلامتك يا علي.

ارتسمت على وجه سالم البشاشة مع قوله. يعتدل علي بنصف جسده مقاومًا تقلصات عضلاته ووجع عظامه وسأل:

ـ كيف وصلت إلى هنا يا سالم؟

ـ ليلاً طُرق بابي بقوة كطرق المستنجد.. لم أدر بنفسي إلا وأنا أفتح الباب، فوجدت وراءه شيخًا كبيرًا صاحب وجه لا يكذب. قال: اذهب إلى بيت حسن رأس الغول صاحبك يحتضر.. لم أدر بنفسي إلا وأنا أمامك هنا.

ـ سالم.. أشربه من الإناء الذي بجوارك لتطرد ما تبقى في دمه.

لما سمع علي صوت أمه غزته دفعة جديدة من الإفاقة. التفت نحو



الصوت فوجد أمه واقفة في ركن الغرفة بملامح غضب، فنظر إلى سالم معاتبًا، فبادر سالم:

ـ كنت تحتضر يا علي! وماذا كنت سأفعل؟

نظر علي إلى سالم دون رد. خرجت فاطمة من ركنها وقالت لعلي محذرة في غضب:

ـ المخدر الذي جرى في دمك أتى من قلب أرض عين الشيطان.. يتسبب في فوضى داخل الجسم والعقل.. يتوه المتخدر في نفسه حتى الموت.

دمعت عيناها خوفًا على ابنها، واستطردت باحتداد مُبعدة ما ظهر في العين:

ـ أرأيت ما صنعته بنفسك؟ أرأيت الأعداء الذين صنعتهم لك؟ أعداء أقوى ممن تحداهم أبوك!

خانتها دموعها فانسالت. استندت بظهرها على جدران بيت لم تدخله من زمن. تريد في أقرب فرصة الخروج منه. رائحة البيت تتغلل فيها فتنفجر ذكرياتها فيه مع حبيبها، فزمجرت بالقول:

ـ لن تعيد كرة أبيك.. ولن تعيد عليّ الوجع.



استعادت قوتها فأمرت علي:

ـ يومان وستستعيد قوتك.. عندها تعود إلى القصر وتعيش وتموت وأنت طبيب سنقر الكلبي.

همت بالخروج لئلا تسمح بأي حوار. أوقفها علي مُطلقًا أقصى قوة في صوته المتحشرج:

ـ إني انتهيت يا أمي...

تتوقف دون التفات، فأردف علي:

ـ ولا يوجد طريق عودة مما بدأت.

التفتت إليه وهي تعلم ما ستقوم به وقالت ساخرة بتحدٍ:

ـ ولكني أعلم كيف أعيدك للقصر.

وخرجت تاركة سالم وعلي يتبادلان النظر. عين سالم سألت قبل أن يفصح:

ـ ماذا تعتقد أنها ستفعل يا علي؟

ـ ليس أمامها إلا أن تضع داء لسنقر يجلسني بجواره ليلاً ونهارًا.

نظر علي إلى نافذته المتسرب منها ضياء الشمس، يلتقط بعض أحداث ليلة الأمس، فانتفض بالقول:



ـ سالم.. أين زبيدة الآن؟!

بخوف سأل سالم:

ـ ما بك يا علي؟ ولماذا تسأل عن زبيدة؟

ـ لملوم أمسكوه و...

انقطع علي عن الكلام لفضحه دون قصد سر زبيدة لأبيها، فتقدم سالم نحو علي وهو يعبث بداخله التوتر والقلق:

ـ وما علاقة زبيدة بلملوم يا علي؟!

قام علي في سرعة من فوق السريز فترنح، أسنده سالم وقال باستعطاف الخائف:

ـ قل ما الأمر يا علي؟

ـ زبيدة شريكة للملوم.. لملوم أمسكوه ولن يتركوه حتى يفشي سر من معه.. زبيدة في خطر!



بيت سالم ـ منحل العسل

يطن النحل داخل منحل العسل لحركة زبيدة بينه، مدت يدها باحتراف داخل بيت النحل وأخرجت شمع العسل وصفته داخل وعاء فخاري ذي عنق فتح فاه اتساعًا، وجسم منتفخ. ولما أفرغته أخرجت من سيالتها قارورتها الزجاجية الصغيرة، لملئها للملوم المحب منها هذا الجميل الذي قربها إلى قلبه دون بوح عن حبه، وكل مرة يقول لها:

ـ عسل يحمل عسلاً!

فتمتعض بوجهها أمامه من قوله، وتبتسم بينها وبين نفسها كما تفعل الآن. سحبت ابتسامتها لما سمعت حركة في ساحة البيت، فالتفتت بقلب غير مطمئن حاولت إبعاده بالنداء:

ـ أبي.. رجعت؟

لم يُستجب للنداء، فخرجت بحذر مستكشفة ما ظنت أنه هيئ لها لقوة طنين النحل في أذنها، وعند خروجها وجدت في ساحة المنزل دماء غطت جسدًا ملقى على الأرض، عرفته فوثبت نحوه:

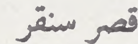
ـ لملوم!

قالتها وهي تستجمع شتات ما تراه. يرتعش جسمها ارتعاشًا شعر به لملوم من يديها الحاملتين رأسه بينهما قابضة دون إرادة على قارورة العسل الصغيرة، تقطر عسلاً بصعوبة دون شعور منها، كتقطر شفاة لملوم بقول شيء تثاقل من ورم ودم وأسنان تهشمت معلقة في جدار الفم. تحدى كل ذلك ولفظ:

ـ سامحيني!

لم تفقه قوله إلا بعد التفاف رجال الموت حولها مقنعين بقناع بارد فضي كأموات حقدت على كل حي، فانقضوا عليها إمساكًا وتقييدًا وإخراسًا، فلم تجد إلا أن تقبض بيدها على قارورة العسل المتقطرة بقوة.





قصر سنقر

بخطوات ثقيلة دخلت فاطمة بهو القصر، فنشطت عيناها بالحركة في كل ركن لنشاط الخدم بالنظافة والتلميع ومسح بلاط القصر بالمسك والعنبر؛ فاحت الرائحة بقوة. تخطت الرائحة إلى رائحة المطبخ دخولاً، فوجدته أكثر نشاطًا. بخار يتصاعد من الأواني الكبيرة، ودماء ذبح جمل وبقرة وشاة، وديوك تصيح. طافت بعينيها حتى وجدت من تسأل:

- لمَ كل ذلك يا جليلة؟

فردت جليلة ممتعضة:

- قبيحة السيرة والخطى تتعب من حولها أينما حلت.. دليلة.. أرسلت بقدومها فهب الجميع للخدمة كما ترين.

نظرت فاطمة إلى جليلة وهي في عالم آخر تفكر. لم يخرجها من عالمها إلا تحرك جليلة من أمام عينيها فنادت:

- جليلة...

التفت جليلة فاقتربت إليها فاطمة وسألت:

- أين غداء درك المملكة سُنقر؟!

أشارت جليلة نحوه قائلة:

- ولكن لم يتم تجهيزه لتحمليه إليه.

ابتسمت لها فاطمة ممتنة وتركت جليلة نحو غداء سنقر داخل القِدر. وقفت أمامه قابضة على الداء في يدها لو ضعه في طعام غدائه. رفعت الغطاء وترقبت بعينيها، فلما رأت انشغال الجميع رفعت قبضة الداء، وقبل أن تلقي به قِدر الطعام ترامى على وجهها التردد: أتضع الداء أم لا؟





عدا بفرسه الزيبق ومن ورائه سالم عدوًا، فقدحت الموريات خلفها شررًا. اشتعلت فيهما نار الخوف والقلق لأب مكلوب وحبيب لم يفصح عن حبه قط.

- أيقتلون زبيدة؟! فلتنعمي بحياة أنا فيها خسيس أهون عليّ من موتك.

تتوارد الخواطر الموسوسة بعلي تأكل فيه أكلاً، فنغز بقدمه في بطن فرسه فأسرع ضابحًا بأنفاسه ضبحًا.

- زبيدة يا صغيرتي يا من لم تكبري في عيني قط!

سالم يتأتى في خياله شريط حياة ابنته يتحرك في سرعة. تضحك وتبكي وتتعلم وتساعده في كل شيء. يتساءل في نفسه:

- من أين لك هذا الوقت لكي تقومي بهذه المعركة دون علمي أيتها الصغيرة؟!

صهل فرس علي الزيبق عند وقوفه أمام بيت سالم، وقبل أن ينهي صهيله كانت قدما الزيبق على الأرض وعيناه سبقتاه نحو الباب، فوجده مواربًا فرفع سلاحه وتقدم وأشار لسالم المندفع الخطى بأن يهدأ. أرخى

علي الزيبق الباب بسيفه حتى اكتمل فتحه، ودخل سريعًا رافعًا سيفه لأي غاشم، فوجد ساحة البيت فارغة وبقعة من آثار دماء في أرضها، تخطاها سالم مندفعًا نحو غرفة ابنته مناديًا:

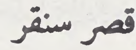
- زبيدة...

وجد الغرفة فارغة وخرج سريعًا نحو المنحل فوجد علي خارجًا منه. أومأ لسالم بنفي وجودها، فهرول سالم نحو غرفته الفارغة. دمعت عيناه وارتعش جسمه فانتفض خوفه. يلتقط أنفاسه وعلي يستجمع من حوله أي أثر يتبعه يقوده إلى حبيبته، حتى سمع نداء سالم:

- علي...

فالتف علي نحو سالم، وجده يشير إلى الأرض فتقدم على نحو الإشارة ليتأكد مما يراه. عسل مُقطر يتجه أثره إلى الباب خروجًا. نظرا لبعضهما على أمل أن يقودهما أثر العسل لمكانها.





رأس ماعز بلا روح ولا قرن. انتهك. ذُبح وأُخذ جلده وصنعت منه قربة ماء، واستبدل به أُرز معصفر مخلوط بالزبيب والمكسرات داخل آنية فضية بحجمه، أحاطه كل ما لذ وطاب تفوح رائحته فيجوع شبعان البَطن. على غير عادته سنقر يأكل في سرعة ونهم يدفن توتره وقلقه لما تفاجأ به. قدوم دليلة.

لم تأت دليلة من زمن.

لم يتوقف سنقر عن الطعام وهو يتكلم. بلع ما في فمه من الطعام واستطرد:

- أريدكم أن تُشرفوني.

كبير جماعة الذعر وكبير جماعة البصاصين يقفان في نهاية الطاولة، يومئان له بالإيجاب، فنظر سنقر إلى كبير جماعة الذعر بعدم اطمئنان، فنهم في الطعام أكثر وقال:

- كل شيء يتم تجهيزه كما لو أننا نعلم بقدومها من سنة.

أنهى طعامه وقام في حدة وقال لفاطمة الواقفة في ركن غرفة طعامه:

- أبلغيهم أنهم أكثروا الملح في الطعام يا فاطمة.

- حاضر



وأشارت فاطمة للخدم ليحملوا الأواني والقدور، فدخلوا جمعًا فصاح فيهم سنقر:

ـ ويتم تبخير المكان جيدًا لطرد رائحة الطعام.

وأمسك منشفة اغتصبها مسحًا ورماها على المنضدة، وتحرك مشيرًا لكبير جماعة الذعر وكبير البصاصين أن يتبعاه ففعلا، فسأل:

ـ ما بك يا كبير جماعة الذعر؟

لم يجب كبير جماعة الذعر سؤال سنقر، فنغزه كبير جماعة البصاصين. كان سنقر التفت إليه فتبادلا نظرًا، فخرج كبير جماعة الذعر من سرحانه واصطنع ابتسامة امتنان لسنقر لم تذهب حدته وهو يقول:

ـ أراك سارحًا غالب الوقت! ما بك؟ أهناك شيء لا أعلمه؟

بثقة باردة رد كبير جماعة الذعر:

ـ اطمئن يا سيدي.. كل شيء سيصبح على أتم حال.

وابتسم بعد ما قال ابتسامة الغادر.



قناطر السباع ـ هنجر السقايين

ترامت بداية الغروب فوق ظهر هنجر السقايين الخشبي. ضخم كسفينة عظيمة عالية. حفه من خلفه نهر تأخذ منه ساقية الماء الكبيرة وتصب في حوض كبير داخل الهنجر؛ تُملأ منه إرب السقايين المصنوعة من جلد الماعز. هنجر السقايين له بابان كبيران، من جهة يدخل السقايين بالإرب فارغة، ويخرجون بها من الجهة الأخرى مملوءة ماء؛ يتم توزيعها للبيوت بحصص معلومة.

أمام باب الدخول سبعة طوابير طويلة من السقايين، في ثوب من أجولة الخيش شُقَّ جانباه وفُتِحَ أعلاه لدخول الرقاب، وصُبغ بالأزرق فأصبح ثوبًا موحدًا لكل السقايين، ليصبحوا بلونهم علامة في أنحاء المملكة.

علي الزيبق قاده أثر تقطير العسل نحو هنجر السقايين. في خفاء صعد السطح وتحرك بخفة على بطنه زاحفًا حذرًا من شعث الخشب المدبب، ليستكشف من فوهات التهوية عما يحدث بالداخل، فرأى الجمال الثلاثة الحمر مربوطة في أحد الأعمدة الخشبية دون الحمولة.

مجموعة من رجال جبل الموت عرفهم بملابس قتالهم، يتحركون نحو حوض الماء ويفرغون البودرة السوداء، بودرة عين الشيطان، وآخرون يقلبونها بعروق من الخشب حتى تذوب في الماء، وآخرون يملأون قِرب الماعز بالماء ويرصونها بعناية فوق بعضها. خلية عمل من الشر لا تكل،



يقف على رأسها كبير السقايين يتابع ويشجع صائحًا:

ـ إن الساقيين بالخارج والذبيحة تنتظر.. الليلة آخر شربة ماء لها.. أسرعوا.

اختتم كبير السقايين صياحه ساخرًا فضحك الجميع، فخرج زوريق من غرفته الرابضة بجوار باب الخروج محتدًا، وصاح:

ـ قمتم بذلك وهي معكم؟!

يقصد وضع البودرة السوداء في الماء. ثم أشار نحو زبيدة:

ـ علها تفيق أيها الأغبياء.. هيا.. أدخلوها عندي.

هرول اثنان من رجال جبل الموت في ركن داخل الهنجر مُعتم. بعد برهة خرجوا بزبيدة مقيدة مغشيًا عليها. رآها علي الزيبق فانتفضت حواسه، وتابعها وهي تتهاوى بين أيديهم كخرقة قماش حتى أدخلوها غرفة زوريق، فقام علي الزيبق باحثًا عن مكان دخول حتى وصل إلى حافة الهنجر، ناحية باب دخول الساقيين الواقفين في صفوفهم السبعة يحملون القِرب الفارغة ينتظرون فتح الباب. فوجد ضالته للدخول.

* * *

داخل غرفة زوريق ألقى اثنان بزبيدة التي كانا يحملانها فوق أريكة وافرة الراحة حمراء قاتمة، تهاوت فوقها ومن خلف رأسها ينسال خط دم جف من ضربة استقبلتها لعدم البوح بما لا تعرفه. الزيبق. وقف أمامها زوريق وهي تتقلب إفاقة وتهمهم بالوجع. أشار زوريق لرجال الموت بالخروج وقال:

- أرسلوا لي كبير السقايين بالكوب.

سمعوا وأطاعوا، فطرق كبير السقايين الباب، ووقف بجوار زوريق حاملاً ما طُلب منه

- كوب من الماء الطازج.

قالها كبير السقايين بخسة ساخرة، ثم استطرد:

- على الأقل نُجرب ما صنعنا فيها.

- أظمأتموها؟

- عند إفاقتها ستموت على نقطة ماء.

أخذ زوريق الكوب الفُخاري ناظرًا بتأكد على اختفاء بُودرة عين الشيطان في الماء، ثم أشار لكبير السقايين بالذهاب، وقبل أن يخرج حذر:

ـ سيدي زوريق.. هذه جرعة تخدير كبيرة، فخذ ما تريد من معلومات في أسرع وقت.

ـ اهتم أنت بشأن الخارج.

فخرج وأغلق خلفه الباب بإحراج.

زوريق وضع الكوب على طرف طاولته القريبة من الأريكة الحمراء، وجلس على كرسيه. فتحت زبيدة عينيها وبخت بخات بفمها من أثر ما وضعوه فيه. ملح مُزرنخ احتقنت بسببه حنجرتها، فلفظت كحًا وهي تعتدل مستجمعة نفسها، مُتفقدة المكان الذي أفاقت فيه.

رأت بابًا.

ونافذة خشبية مغلقة.

وصهريجًا في السقف مشتعلاً.

وكوبًا فُخاريًا نز بندى الماء فأغرى زوريق الجالس وراءه. لم تبال به زبيدة، وبتحد أخذت جسمها ومدت يدها نحو الكوب، وقبل أن تصل يدها للكوب انقضت يد زوريق حبسًا عنها وحمله ووقف ناظرًا إليها بوجه كالح، سائلاً بثقل:

ـ رشفة ماء عن كل سؤال تجيبين عليه...



نظرت إليه بحدة، فبادر:

ـ من الزيبق؟

ـ لا أظن أن زوريق السماك بهذه السذاجة.. ولو أني أعلم لن أفصح.

قالتها دون أي مهابة منه، فاستغل ذلك:

ـ تحبين التحدي؟ هل تحبين أن نتحدى بعضنا الآن؟

نظرت إليه دون فهم فأوضح:

ـ سأنزع يدي من فوق كوب الماء المثلج وأضعه هنا.

ثم أعاد كوب الماء مكانه على طرف الطاولة، واستطرد:

ـ إذا سبقتني إليه فهو لك، وإذا سبقتك إليه... سأقتلك!

أطلق سراح الكوب من يده. نظرت إليه زبيدة ساخرة دون اهتمام ثم انقضت على الكوب بيدها واختطفته، حتى إن بعض الماء انسكب. تظاهر زوريق بالخسارة فأغاظته بنهم الماء نهمًا فسال الماء على جوانب شفتيها.

أزال الملح في الحلقوم.



وتحركت عين الشيطان في دمائها.

* * *

الزيبق يقف في آخر طابور السقايين وقد تنكر في لبس أحدهم. قبلها أفقد أحد السقايين وعيه بحرفة، وحمله في خفاء نحو سالم المختفي وراء التلال، ومعه ثلاثة جمال فوق سنامهما أخفيا خلايا النحل تطن بقوة. قيدا السقاء وكمماه. ولو كان السقا يعلم الغيب لما قاوم بعنف قيده.

عاد الزيبق سريعًا مكان السقا في آخر الطابور يترقب الدخول، حتى فُتح الباب فسمع صريره الكل. دخل نصفهم وأغلق على الباقين، ووقف علي ينظر إلى الباب بنفاد صبر.

* * *

لما دخل نصف السقايين في الهنجر استقبلهم كبير السقايين وهو يصيح:

بمناسبة مجيء السيدة دليلة قرر درك المملكة سنقر الكلبي إعطاءكم ثوب سقايين جديدًا.

فرحوا وهللوا، فأردف كبير السقايين صائحًا:

ـ علقوا قرب الماعز الفارغة في أماكنها واخلعوا ثوب السقايين القديمة هنا.



وأشار نحو ركن في الهنجر قريب، واستطرد:

ـ الثوب الجديد معلق في الإسطبل ينتظركم.

خلعوا وعلقوا الثوب القديم سريعًا وتحركوا نحو الإسطبل المظلم، المتسرب إليه بصيص من النهار من بين ألواح الخشب، وصاح أحد السقايين:

ـ إننا لا نرى شيئًا.

فأغلظ بالقول كير السقايين:

ـ هيا انتهوا وادخلوا.. إنها معلقة بالداخل.

بانصياع اندفعوا داخل الإسطبل، ولما اكتملوا جميعا بالدخول أغلق خلفهم الباب حبسًا، وما كادوا يبدؤون بالهمهمة استغرابًا حتى خرج عليهم رجال جبل الموت رافعين السيوف والبلاطي المشفرة، وبحرفة وسرعة هجموا فتطايرت الرقاب وطعنت الظهور وتهاوت الأجسام قتلاً وغدرًا، والدماء تحت أقدام رجال جبل الموت تتدفق كسيل ماء.

* * *

زوريق يقترب نحو زبيدة ليرى رد فعل المشروب، فابتسمت له فعلم أن المخدر قد سرى في دمائها، فجلس بجوارها فوق الأريكة. نظرت إليه

خلسة تتفحص وجهه حتى ارتخت ملامحها لما رأت في خيالها أن الجالس بجوارها أبوها فقالت بلهفة:

- أبي...

فتأكد زوريق أن الهلاوس غزتها، فقال بخبث:

- ابنتي.. حبيبتي.

- سامحني يا أبي على ما أخفتيه عنك...

صمتت برهة وأردفت في خجل:

- إني أعمل مع للوم.

فبادر زوريق:

- لا يا بنيتي.. أنا لا أحمل لك أي ضغينة، بل كنت أتمنى لو أنك تعملين مع الزيبق.

نظرت إلى أبيها باستغراب، ثم نظرت حولها وقالت كشارب الخمر سُكرًا يستعطف:



ـ أبي.. أخرجني من هنا!

لم تجد ردًا. فعادت ناظرة إلى وجه أبيها لم تجده ووجدت وجه زوريق.

صرخت

ابتعدت

وقفت بعيدًا

صراخها تذبذب في الهواء ونقله حتى وصل إلى السقايين أمام باب الدخول. همهموا استغربًا وتساؤلاً كيف توجد امرأة في هنجرهم؟

الزيبق وقف في توتر ثم أخذ قراره أن يخترق صفوف السقايين نحو الباب، وعند همه بفتح باب الدخول إلى الهنجر اندفع جميع السقايين بالدخول كموجة تحمل في قلبها الزيبق.

* * *

ـ اهدئي.. اهدئي

قالها زوريق مقتربًا إلى زبيدة كمروض نمرة. نظرت إليه زبيدة وكسا وجهها الاستعجاب والحيرة لما رأته أمامها. رأت علي. فقالت:

ـ علي! أنت هنا؟! أوحشتني.



اقترب إليها زوريق أكثر وأخفى استعجاب وجهه وسأل:

ـ أنا علي.. الزيبق؟

بملامة أجابت زبيدة:

ـ لا يا علي يا حبيبي.. أنت جبان وخسيس!

فتقدم زوريق إليها خطوة أخرى كالثعلب وسأل:

ـ إذن من هو الزيبق يا زبيدة؟

تبتسم زبيدة وقالت بدلال:

ـ تغار منه يا علي؟

بنفاد صبر دفعها زوريق من أمامه فسقطت في ركن الغرفة تتألم. حلمه الذي يخططه له هو وأخته دليلة سيتحقق الليلة؛ كل الأعداء تحت الأقدام بعد ذلك، فلا وقت لهذه البلهاء. تحرك نحو باب الخروج وقبل أن يغلق الباب قالت زبيدة:

ـ هُنت عليك يا علي؟!

فأغلق الباب خلفه بغيظ وخرج وهو يطوف ببصره في ساحة المنجر



يستكشف، فرأى كبير السقايين يقف على رأس رجاله يشير للدفعة الثانية منهم نحو الإسطبل وهو ويصيح:

ـ الملابس الجديدة في الإسطبل.

فتبسم زويق تبسم الشيطان، وما كاد يترك مقبض بابه حتى سمع صوت عجلة الساقية تتوقف مزمجرة بتروسها المحشورة. قبلها وضع الزيبق في تروسها ثلاث قرب من جلد الماعز فانحشرت يكاد ينفلت من مجراها الماء. تضغط الساقية عليها بقوة فثارت ريبة الجميع، فصرخ زوريق:

ـ افعلوا شيئًا!

وأسرع زوريق الخطى نحو الساقية. سبقه جريًا بعض الساقيين محاولين شد قرب الماعز المنحشرة في تروس الساقية. الماء يزداد ضغطًا فأغرقت من تحتها وانسالت في كل اتجاه بقوة. استغل الزيبق إلهاء الجميع وتحرك في خفاء نحو باب حبس زبيدة، ولما ابتعد رآه كبير السقايين من مكانه البعيد فصاح فيه:

ـ أنت.. ماذا تفعل؟ تعال وساعد الجمع.

تسمر علي الزيبق مكانه دون التفات، فشك زوريق فصاح في علي:

ـ استدر أيها السقا.

برهة وجرى علي نحو أقرب باب. باب الإسطبل. فتحه فرأى ما سمره مكانه.

جثث السقايين

رؤوس متطايرة متفرقة في أعينها أثر الغدر قبل قتلها. الأرض بلون الدم. صاح علي استنقاذًا لباقي السقايين:

ـ قتلوا أصحابنا.

فتحولت كل رقاب السقايين المنهمكين في تحرير الساقية إليه دون فهم. فهموا لما خرج رجال الموت نحو علي الزيبق حاملين السيوف تتقطر دمًا، فافتضح الأمر وهرول الناس نحو باب الخروج هربًا، فصاح زوريق:

ـ لا أحد يخرج من هنا حيًا.. اخرجوا عليهم واقتلوهم.

فخرج من الإسطبل كل رجال جبل الموت رافعين سيوفهم هاجمين على الجميع، وبحرفة جند وزعوا أنفسهم في أنحاء الهنجر، وأحاطوا السقايين المنفرطين كعقد انقطع خيطه، يتخبطون في بعضهم، تأكل فيهم سيوف رجال الموت أكلاً، تشق رؤوسهم البلطة شقًا، صراخ بدم يفور في وجه القاتل والمقتول.

الزيبق يتخطى في خفة هربًا، يبحث عن طريق إلى باب حبس زبيدة،

ولما صل رآه زوريق وهو يدخل. ولما دخل الغرفة وجد زبيدة تكومت في ركنٍ تخور بأنفاسها موتًا. حملها سريعًا وعند خروجه وجد أمامه زوريق على رأس خمسة من رجال جبل الموت رافعين سيوفًا تتقطر دمًا.

ـ الزيبق.. أفلت مرة بأعجوبة، ولكن اليوم لا سبيل لهروبك.

ثم تقدم خطوة:

ـ أحب أن أقول لك قبل موتك وموتها.. كم تحبك هذه الفتاة!

ثم التف في حدة للرجال الموت وأمر:

ـ تُضرب رقبتها أمامه قبل أن يُذبح.

ثم التفت إلى الزيبق وقال ساخرًا:

ـ كم أحببت أن ترى بعينك ما سيحدث الليلة.. ثلاثة أيام وأهل المملكة يشربون ماء خلط بمخدر جربته بنفسي على حبيتك.. سيقوم بالعجب هذه الليلة، وتأكد...

ثم صمت واقترب لعلي وقال في غرور:

ـ لا أنت ولا غيرك يا زيبق له القدرة على إيقاف ما سيبدأ الليلة.. انظر...

وأشار إلى جثث السقايين المتفرقة الغارقة في دمائها، واستطرد:

- كل ما تراه الآن ما هو إلا نقطة دماء من بحر سيغرق فيه كل من هم ضدنا.

وابتسم ثم قال:

- والآن اسمح لي أن أرى وجهك.

ومد زوريق يده بهدوء نحو طرف لثام الزيبق. رجال جبل الموت من خلفه اشرأبت أعناقهم نظرًا بفضول، وعند إمساك زوريق بطرف لثام علي الزيبق، قذيفة من سقف الهنجر عبر نافذة التهوية سقطت خلف زوريق وأمام رجال الموت، فانفجرت ببيت النحل اللاسع، وما كادوا يخرجون من المفاجأة حتى تقاذفت بيوت من النحل متفرقة في أرجاء المكان من شخص لا يرون إلا يديه.. كان سالم ومعه السقاء الوحيد الذي لم يمت.

طن في الآذان النحل وغزا لسعًا وانتقامًا لبيوته التي هُدمت، فتعالت صرخات رجال جبل الموت الهاربين منه، وبينهم كبير السقايين وزوريق الذي دخل الغرفة هربًا وأغلق الباب سريعًا خلفه ومعه بعض النحلات اللاسعة.

علي الزيبق أمام باب الخروج يشعر باهتزاز جسم زبيدة فوق كتفيه لدقات

قلبها السريعة، المتخبطة في خوفه عليها. دفع الباب بقدمه. خرج مسرعًا وقد خرج خلفه بعض من النحل سبقهم نحو التل الذي يختفي خلفه سالم بفرس علي الزيبق. قبلها طلب من آخر سقا الهرب. وضع علي الزيبق زبيدة فوق ظهر الفرس وخلع ثياب السقا سريعًا. سالم أمسك رأس زبيدة بخوف لما رأى شحوب موت في وجهها، فبادره علي:

- سالم.. لا تخف.. سأذهب بها إلى أمي سريعًا، وانتظرني في بيتك.

نظر إليه سالم بتردد فاستطرد علي:

- لا وقت يا سالم.. سآتي لك بها.. لا تقلق.

وثب علي الزيبق فوق فرسه تاركًا سالم متعلقًا نظره بهما، حتى اختفيا.

* * *

داخل هنجر السقايين فوضى وبقايا نحل يطن فوق الجثث. يقف زوريق ونعله غائص في الدماء وحوله رجال الموت ينتظرون الأمر. كبير السقايين يتقدم نحو زوريق في حذر سائلاً:

- نؤجل الخطة؟

نظر إليه زوريق بحدة وتكلم في غضب:

ـ أنت لا تفترض ولا تفكر.. هل تعتقد أن من يدعى الزيبق سيقدر على فعل شيء وحده؟

ثم نظر إلى رجال جبل الموت وقال:

ـ على نفس خطتنا.. يخرج رجال جبل الموت متنكرين في ثوب السقايين.







ثمة اشتعال استدار في قلب سماء الليلة، يهبط ناحية قصر سنقر الكلبي الراسخ فوق هضبة عالية، شعت أنوراه المعلقة ابتهاجًا واحتفالاً بنيران داخل القناديل والصهاريج وفي المشاعل المطعونة في الأعمدة. انسال الضوء على الوافدين بعربات تجرها الخيل تخترق حديقة القصر الواسعة وصولاً إلى مُدرج بسبع درجات، يصعده فخرًا المدعوون لحفل قدوم دليلة. فساتين النساء طرزت بعناية وصبغت بألوان تُشرق، وقلادات مرصعة حول الرقاب وأساور من ذهب في معاصمهن، وأياديهن مُسندة على أيدي من اقتنوهن من رجال حاشية سنقر الكلبي بعباءاتهم وعماماتهم التي استطالت بألوان تلوت فيها خيوط الذهب والفضة، وعطور تفوح أتت من أفضل أماكن العالم، وأحذية من جلد ونعال من ذهب تتسارع صعودًا نحو باب القصر، حيث يأتي من الداخل صوت آلات الموسيقى العالي.

ـ انظر!

قالها أحد حرس جنود الذعر لزميله الواقف معه على باب سور القصر الخلفي، لما رأى حصانًا يخرج من قلب الأشجار، يتقدم نحو القصر في سرعة؛ رفع الحارسان سيفهيما.

ـ توقف.

صرخ بها حارس البرج شادًا سهمه نحو راكب الحصان، وعند إطلاق السهم دخل الفارس مجال نور مشاعل القصر، فتراءى للجميع.

- إنه الطبيب علي.

صاح بها حراس الباب.

شد علي الطبيب لجام فرسه ليقف أمام الباب، فصهل ونفر، ولما وجد أعين الحارسين تمسح زبيدة فاقدة الوعي بادر:

- الزيبق وسط الأشجار، أراد قتل الفتاة وقتلي.

فُتح باب القصر الخلفي. خرجت كتيبة نحو الشجر. قبلها توغل علي الطبيب بعيدًا عن أعين الوافدين ليدخل للقصر من الخلف. وهو ينزل زبيدة لمح في السماء شيئًا يشتعل وينطفئ ويهبط نحو حديقة القصر، حتى تراءى للجميع منطادان.

- إنه لشيء جميل!

قالتها إحداهن وقد اتكأت على صاحبها مشدوهة فاتحة الفم. وكصندوق هدية يُفتح خرج من داخل المنطادين البهلوانات والبلياتشو والحواة يستعرضون أمام المدعوين، فابتهجوا وانبهروا ومنهم من سارع بالدخول إلى القصر ليحجز له مكانًا يرى منه بوضوح ما سيقدمه الحفل الليلة.



جناح الطبيب علي

أنفاس زبيدة هدأت ودقات قلبها انتظمت؛ أخذت جرعة من ترياق بشارة النحل المجفف، وضع في مبخرة فاستنشقته فجرى في دمائها وتصارع مع مخدر عين الشيطان. احتاجت جرعة أكثر مما احتاجها علي لما حدث له ما حدث لها. جلس علي بجوارها ينظر لوجهها النائم فوق وسادة الأريكة في جناحه، وقد تبدد لون بشرتها من شحوب الموت، فاطمأن نوعًا ما.

- لا تقلق، ستُصبح بخير.

قالتها فاطمة وهي تضع المبخرة فوق المنضدة، ناظرة لرأس علي النازف بالجرح من الخلف، فطلبت:

- قم لأنظف وأداوي جرح رأسك.

يضع يده خلف رأسه يتحسس الجرح:

- لا يا أمي.. فلتكوني بجوارها وأنا سأدخل لأقوم بذلك.

صمت ونظر إلى زبيدة وقال:

- لا أريدها أن تعلم سري.



أومأت فاطمة برأسها إيجابا دون اقتناع، وقالت:

- وإني سأذهب لآتي بالماء.. ستحتاجه بشده عند إفاقتها.

ذهبت فاطمة لتجلب لها الماء ودخل علي غرفته. برهة وبدت من جسد زبيدة حركة، وبتعب فتحت عينيها، وما فتحتها حتى وجدتْ سقفًا أبيض عاليًا مقببًا. تحاول أن تستجمع شتات أفكارها، فلما تذكرت هنجر السقايين وزوريق انتفضت قيامًا باحثة عنهم، فوجدت نفسها في حجرة واسعة بسيطة الأثاث.

منضدة خشبية قصيرة في وسط الغرفة.

تحتها سجادة مزركشة.

فوقها أكواب من نحاس ومبخرة.

وباب في آخر الرُدهة.

لا تدري أين هي. دوار أمسكت رأسها لأجله، وقامت نحو الأكواب النحاسية عطشًا. وجدتها فارغة فتركت الكوب بيأس. سمعت حفيف خطوات تتقدم. انتظرت حتى تكشفت أمامها فاطمة حاملة دورقًا زجاجيًا مليئًا بالماء. فار دم زبيدة واستبدل بدوار رأسها الغضب؛ كم تكره هذه المرأة الخائنة لما آمنت به. مثال حي أمامها تخاف أن تكون مثلها وتتحول



من امرأة شجاعة لجبانة، فكرهت أن تكون في حيز وجودها؛ قالت بحدة:

- كيف أُتي بي إلى هنا؟

نظرت إليها فاطمة بهدوء وأجابت باقتضاب:

- أبوكِ.. سالم.

بالطبع. ابنته تحتضر، فأنى له إنقاذها إلا على أيدي امرأة وابنها يداويان درك المملكة.

تقدمت زبيدة إليها بترنح. حاولت بكل قوة أن تخفي ضعفها وقالت:

- جيء بي إلى هنا دون اختياري، ولو كان بي وعي...

تصمت وتنظر إلى عيني فاطمة، وتستطرد بقوة:

- إن الموت لأهون عندي من أن تلمسيني.

نظرت إليها فاطمة دون رد، وندت عيناها بدموع أخفتها برفع دورق الماء، ومدت به إلى زبيدة وقالت:



ـ صبي في الأكواب النحاسية الماء.. بالتأكيد تحتاجين الماء.

دفعت زبيدة يدها بيدها فسقط الدروق فتفتت زجاجه بين أقدامهما، ووثب بعض الماء على ثوبيهما. وصل صوت الكسر لعلي وقبل أن يخرج سمع زبيدة:

ـ يجب أن أخرج من هنا.. أنت وابنك وأمثالكما سبب ما نحن فيه من وهن.. يا من كنت زوجة أشجع رجل مشى على هذه الأرض!

ثم صرخت:

ـ أخرجيني من هنا.

خرج علي من الغرفة مندفعًا ناظرا الزبيدة، وتحرك ناحية أمه مقتربًا إليها ببطء، كحركة الدماء المنسالة على رقبته فورانًا من رأسه وقال:

ـ السيدة فاطمة كانت سببًا لإنقاذ حياتك مما أصابك من زوريق.

وقف أمام فاطمة ناظرا إلى عين أمه التي تهرب بعيدًا من نظرة عينيه.

السيدة فاطمة من قبل كانت سببًا في إنقاذ الزيبق.. السيدة فاطمة هي السبب في وجود الزيبق الذي يتحاكى عنه الجميع.

رفعت فاطمة عينيها ونظرت إلى عيني ابنها، فرأت الطفل الذي محت ملامحه قديمًا قد عاد إليه ما محته؛ أردات أن تحتضن ملامحه، ولكن منعتها فاطمة الأخرى واضعة الداء في طعام سنقر الكلبي. حفر علي أعمق في ذكرياتها وقال:

- مهما حدث ستظل السيدة فاطمة زوجة حسن رأس الغول أشجع الرجال..

فاطمة فارت في عروقها الدماء جريًا، ضُخت في القلب فامتلأ ضربًا وطرقًا، فتنازع في صدرها حقيقتها وكذبتها في معركة هي الأخيرة بينهما، والمنتصر هو الذي سيظل معها حتى النهاية. أجهشت بالبكاء. بكاء حبس من زمن، عند قتل من لم تحب غيره ولم تحب بعده، زوجها، فأخرجت ما دفن في أعماقها وظهر معدنها وقالت:

- لم أضع الداء في غداء سنقر يا علي.

أجهشت بالبكاء وظلت تردد:

- لم أضع الداء في غداء سنقر يا علي.. لئلا يأتي بك يا علي!

احتضنها علي بقوة. أفرغت زخات دموعها على صدر وليدها الذي

كانت مهمته غير المعلنة أن تعود إليه أمه. بكفه اليمنى طبطب على ظهرها خلف قلبها، حتى خرجت من حضنه هادئة وقالت في وحشة:

- لم يزرني حسن يومًا في المنام يا علي.

ابتسم الابن قائلاً:

- قال لي إنه يشتاق إليكِ.

تبادلا نظرًا باشتياق أخرجهما منه إجهاش بكاء زبيدة الجالسة على الأريكة تمسح دموعها، فقالت فاطمة:

- أظن يا زبيدة لا حجة لك الآن.. سأذهب لآتي لك بدورق ماء بدلاً مما انكسر.

ابتسمت زبيدة فردت لها فاطمة الابتسامة وذهبت سريعًا. بعدها انكسبت زبيدة بالحركة نحو علي وقالت:

- كنت أشعر أنك الذي...

قاطعها علي مازحًا:



ـ الخسيس الجبان.. أليس هذا قولك؟ لن أنساها لكِ يا زبيدة.

ابتسمت عيناها فابتسمت عينا علي. خرجت فاطمة بالماء، نظرت إليهما برهة ثم تنحنحت، فاندفعت زبيدة نحوها خجلاً واحتضنت فاطمة بقوة.

ـ الماء سينسكب مرة أخرى يا زبيدة.

قالتها فاطمة وقد أبعدت يدها الحاملة دورق الماء وقالت بحنان:

ـ كفى.. هيا اشربي الماء.

فخرجت زبيدة من حضن فاطمة واحتضنت بكفها الدورق، ونهلت من الماء نهلاً بعد ظمأ.

تقدم علي نحو فاطمة وقال:

ـ أمي.. أريد كل كمية هذا الترياق.. زوريق ودليلة يخططان به لشيء كبير.

ـ بشارة شمع النحل؟! لا أملك منه إلا القليل.

قطعت زبيدة الشرب وقالت:



ـ في منحلنا الكثير منه.

نظر علي لكلتيهما مفكرا ثم قال:

ـ لا يوجد وقت.. أمي عليكِ أن تذهبي إلى سالم.. طمئنيه على زبيدة وائت لي ببشارة شمع النحل كله، وأنا هنا عيني على دليلة كي لا أجعلها تخرج من القصر.

. وضعت زبيدة الدورق وقالت في حسم:

ـ لن نضطر إلى كل ذلك.

فنظرا إليها تساؤلاً، فأجابت زبيدة بحماسة:

ـ اليوم آخر يوم لدليلة وسنقر وزوريق.. دليلة عندما وجدت رجال جبل الموت يغزون الممالك لجأت إلى الدنف ورجاله.. الليلة سينهي الدنف على سنقر.. وإني مكلفة بأن أعطي إشارة لرجال الدنف المنتظر لحظة الهجوم والتخلص من كل الجاثمين على أرضنا شرًا.

امتزجت داخل علي الدهشة بالقلق والتوتر والذعر، وقال:

ـ ما الذي تقولينه يا زبيدة؟ الدنف هنا؟! كيف؟! سنقر يبحث عنه.



ردت زبيدة بذكاء:

- لن يراه سنقر ولا أي أحد حتى.. دليلة طلبت من سنقر أن يكون الاحتفال الخاص بها تنكريًا، وسيدخل الدنف وبعض الرجال متنكرين بالأقنعة.

يستجمع علي تفكيره بما تفاجأ به، يحاول أن يستجمع كل أطراف خيوط دليلة:

- الليلة وضعت دليلة الجميع في جراب واحد. ستتخلص منا جميعا بعضنا بأيدي بعض.. وستقضي أيضا على أهم قوة كانت تخافها.. الدنف ورجاله.. يجب أن نوقف ذلك.

نظرت إليه فاطمة وزبيدة دون فهم، فقال لزبيدة:

- تثقين بي الآن؟

تومئ زبيدة لعلي بالإيجاب دون تردد، فاستطرد:

- أريدك ألا تعطي إشارة إلى رجال الدنف إلا بعد أن آذن لك.

تنظر إليه بتفكير لم يطل، وقالت:



ـ لك ذلك يا علي.

تحول إلى أمه قائلاً:

ـ اذهبي أنت الآن إلى سالم سريعًا.

الأم تخرج سريعًا، وعلي أسرع يدخل إلى غرفته ويأتي من تحت سريره ببدلة جندي جماعة الذعر؛ أول ثوب تخفى فيه خرج وأعطاه لزبيدة:

ـ تنكري بهذا اللبس سريعًا.

التقطته زبيدة وهمت أن تقول شيئًا فقاطعها علي بجدية:

ـ أريدك أن تُجنبي زبيدة العنيدة الليلة، وتفعلي كل ما أقوله لك.

أومأت له زبيدة بالإيجاب.



«الضلمة دليل النُور»





قصر سنقر ـ البهو

نفخة نار في الهواء من فم أحد الحواة، مرت فوق رؤوس من الدببة والضباع والأفيال والذئاب والثيران والقرود والثعالب، تنكر فيها المدعوون إلى الاحتفال بدليلة؛ أقنعة أعطيت لهم عند دخولهم فتنكروا فوق تنكرهم، فأصبحت الحفلة أشبه بغابة من كل الحيوانات والطيور من الصقور والنسور والبوم؛ غابة لا أحد فيها يفترس أحدًا، الكل يضحك فيها منبهرًا بألعاب الحواة وقفزات البهلوانات، وخفة دم المهرجين، ولاعبو استعراض يطيّرون في الهواء لأعلى ويسقطون في حلقة واسعة صنعها المحتفلون كحقلة سيرك؛ تصفيق حاد من الجميع إلا سنقر، جالس فوق كرسي العرش بارتفاع السبع درجات؛ أكثرهم متعة للمشاهدة من مكانه العالي. يهتز جسمه ضحكًا مما يضحك له المحتفلون. اختفت ضحكته تحت قناع غراب برز منقاره وتطاول.

صوت بوق عال قطع الضحك وقُطعت متعتهم، وتوقف اللهو واستدارت الرقاب نحو نافخ البوق، فرأوا باب الحفل العظيم يفتح على مصراعيه فصاح المنادي:

ـ السيدة دليلة...

خفتت الأصوات لها شيئًا فشيئًا، ووقفت هي على أعتاب الباب ممشوقة الجسم غرورًا بفستانها الأسود الشهير. يتلألأ. يتجسم فوق نحافتها وطولها

المائل كحد السيف. صُنع لها قناعها بعناية لوجه كائنها المفضل، أنثى العنكبوت التي صنعت لها بيتًا كبيرًا من زجاج داخل حُجرتها في جبل الموت، تملي عينيها فيها كل يوم، تراقبها وهي تغزل بيتها، تنتظر فريستها حتى تقع في شباكها، والأمتع لدليلة مقاومة الفريسة في شباكها، وكلما قاومت تقيدت، حتى تيأس وتستسلم فتترك نفسها للمفترسة لتضع السم في أحشائها.

راقبت نظرًا حشود المحتفلين، بعدها تحركت بنعل كعبه من حديد أسود داكن، يضرب في الأرض بإيقاع كبندول الساعة، فانشقت لها أجسام المدعوين صانعين ممرًا نحو العرش، وتعلقت بها الأنظار، ولما وصلت إلى منتصف الممر دخل من باب البهو خلفها ضيوفها في خفة مقنعين، أحدهم بقناع أسد وثلاثة بوجوه نمور، وعند اختلاطهم مع المحتفلين كانت دليلة وقفت أمام سنقر، فوقف لها استقبالاً وانحنى في أدب ومد يده لها وأطرق مجاملاً:

- بجواري يا سيدتي دليلة.

أومأت برأسها ممتنة وجلست على يساره دون كلمة. أشار سنقر للمدعوين فعاد اللهو والضحك والشرب من الكؤوس، ونيران الحواة تنفخ في الهواء وتموت فيه تاركة وراءها روح دخانها فوق الرؤوس. اخترق كبير جماعة البصاصين الحشود بعينيه إلى ضيوف دليلة، الأسد والثلاثة نمور، الواقفين وسط الحشود تحت أحد أعمدة القصر. نغز كبير جماعة الذعر كبير البصاصين



الواقف بجوار عرش سنقر وقال:

- لا تبعد عينيك وعين بصاصيك عن ضيوف دليلة.

أومأ كبير البصاصين بالإيجاب من تحت قناعه، قناع الصقر، ثم سأل كبير الذعر بتوتر:

- هل رأيت زوريق؟

- لا.

- أود أن أعلم ما يخفيه هو وأخته.

صاح كبير البصاصين:

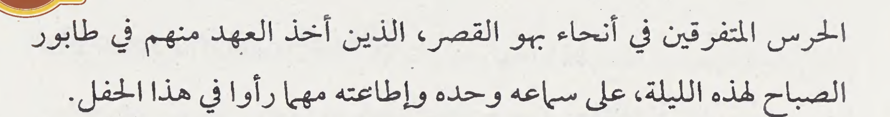
- جاء.

فسأل كبير الذعر بلهفة:

- زوريق؟

- لا.. بل الطبيب علي.

تبدد اهتمام كبير جماعة الذعر كتبدد غيمة، وطاف بعينيه على أماكن



الحرس المتفرقين في أنحاء بهو القصر، الذين أخذ العهد منهم في طابور الصباح لهذه الليلة، على سماعه وحده وإطاعته مهما رأوا في هذا الحفل.

ـ سأتفقد الحرس.

قالها كبير الذعر لكبير البصاصين، وتحرك بتنكر قرصان على رأسه طاقية سوداء استعرضت، فوقها ريشة بيضاء، وجلدة سوداء غطت عينًا، والأخرى تطوف وتطمئن على مكان الحرس، حتى وجد أحدهم يقف في مكان لم يأمر به. إنها زبيدة المتنكرة في ملابس جنود الذعر. انكمشت في نفسها لما رأت كبيرَ جماعة الذعر يتقدم نحوها، وفي اللحظة الحاسمة...

ـ ألم تشتق لي؟

أتى الصوت من خلف كبير جماعة الذعر، فتوقف لعلمه بصاحب الصوت، فابتسم وقال:

ـ الزيبق!

التفت فوجد الزيبق متنكرًا في ثوب مقنع بوجه هيكل عظمي ملتفحًا بالسواد، فلم يجد كبير الذعر غير أن يقول:

ـ بالتأكيد هذه أنسب الحفلات لك.

ابتسم الزيبق تحت قناعه وقال:



ـ ألم تسأل نفسك أين زوريق؟

ـ دائما تثير اهتمامي.. قل ما عندك.

ـ قوة من جماعة الذعر في سرعة تذهب إلى هنجر السقايين وتقبض عليه.

نظر إلى الزيبق كأنه وجد كنزًا فسأل بفضول:

ـ وما يدبر؟

ـ لا أعلم.. ولكن الذي أعلمه جيدًا أن المملكة ستنقلب بما يخطط له الليلة.

في سرعة تخطى شر الطريق الزيبق نحو باب البهو. أوقفه الزيبق بإشارة من يده وسأل:

ـ قل لي.. أين ضيوف دليلة؟

ـ تعرف عنهم أي شيء؟!

ـ سأعرف.

ـ ابحث عن أسد وثلاثة نمور.

أومأ الزيبق، وقبل أن يتحرك قال:



ـ لا تجعل دليلة تغيب عن عينيك.. لا تدعها تخرج من الحفل.

فقال كبير الذعر بنية شر مُبيتة:

ـ الليلة ليلتها.

وافترقا.

خلع علي قناعه بخفة وخفاء واتجه نحو عرش سنقر. سلم عليه وتبسم، فعرف سنقر علي بدليلة:

ـ أريد أن أعُرفك يا مقدم دليلة على أمهر الأطباء.

تتلاقى يد علي بيد دليلة. نعومة يدها في يده تشير إلى أنها امرأة لم تتعد الثلاثين، ودليلة يعلم الجميع أنها في الخمسين، فشعر بشكوك في نفسه علي الطبيب. أومأت دليلة له بالامتنان برهة، واستأذن علي بالذهاب ونزل فوق مدرجات العرش السبع، وحام بنظره باحثًا عن الأسد والثلاثة نمور، وعند الدرجة الخامسة نزولاً وجدهم.

أمام شاطئ البحر القريب من هنجر السقايين وقفت دليلة أمام البحر بفستانها الشهير الأسود المتلألئ، تنظر في أعماق البحر، تنتظر جسد الأب

المحمول فوق سطح الماء في مركب مستلقٍ على ظهره، وقد تفتق جلد جسده عن العظام، يتلاعب فوق وجهه الشاحب موتًا ضوء مشاعل النار المحمولة في يد رجال الموت، يقودون وراءهم سبعة مراكب بسبعة كهان يتمتمون تقديسًا بتمتمة السحر، حتى إن أذني دليلة التقطتا تمتماتهم قبل أن ترى المشاعل فوق المراكب تقترب إلى الشاطئ، فخطت خطوة نحو الشاطئ بحماسة، حتى إن ماء البحر لامس أطراف قدميها، الحافيتين تقديسًا للقادم.

* * *

يد تطرق باب بيت سالم بقوة.. يفتح الباب سريعًا وكأنه جالس خلف الباب منتظرًا أي خبر يطمئنه على ابنته، فوجد أمامه فاطمة، ففاضت عيناه بالخوف حتى إن لسانه لم يقدر على النطق بالسؤال، فبادرت فاطمة:

ـ لا تقلق.. زبيدة بخير.

* * *

ـ فلتحسبي مرات إنقاذي لك.

قالها علي بصوت خافت يمازح بها زبيدة الواقفة بجوار العمود في ملابس جندي الذعر. ضحكت من تحت قناعها بصوت مكتوم وقالت:



ـ خطوات وكاد كبير جماعة الذعر يكشف أمري.

ـ لا تقلقي منه.. لقد ألقيت به في عالم زوريق.

ـ كنت أود...

انقطعت عن الكلام زبيدة لما نظرت مكان صوت علي وقد اختفى. بحثت عنه بعينيها حتى لمحت ظهره يختفي وسط الحشود إلى أن وقف أمام الأسد والثلاثة نمور. تحفزوا بحركة أجسامهم لحماية الأسد من الواضح بوجهه لهم، علي. طبيب سنقر الذي باعهم جبنًا وخسة أو هكذا ظنوا. لم يهتم علي لتحفزهم له وظل ناظرًا إلى عين الدنف القابعة تحت قناع الأسد، ليرى أنه أتى إليه غير بائع ولا خائن ولا خسيس، فبادر الدنف بالسؤال الأهم له وبحدة:

ـ كيف علمت بوجودنا هنا!

علي نظر إليه دون رد لعل الدنف يهدأ قبل أن يطلب منه ما أتى به إليه.

* * *

داخل استطبل الطبالين اصطفت النوق معلقة على جانبيها الطبول، ركب فوقها الطبالون، في أيديهم مطارق القرع، ينتظرون إشارة الخروج

من كبير الطبالين الواقف أمام باب الإسطبل المفتوح على مصراعيه، عندها سيخطفون الناس بالقرع من فوق أسرتهم من قلب موتتهم الصغرى، ليلقوا بأنفسهم دون إرادة نحو موتتهم الكبرى.

* * *

من قلب عطارة سالم تجر أجولة مليئة ببشارة شمع النحل بأيدي فاطمة وسالم. يضعانها فوق فرسين يقفان أمام العطارة، وعند وضع الأجولة سمعا طبولاً تقرع في أرجاء حواري وأزقة المملكة، ما أثار دهشتهما فتساءلا نظرًا.

* * *

ـ لا تقتل سُنقر الكلبي.

قالها علي الطبيب للدنف مترجيًا، بعدها نظر حوله في ترقب خوفًا من أن يراه كبير جماعة الذعر، وعاد بنظره إلى الدنف الذي رد بصمت مطبق ونظرة غير مقتنعة، فاستطرد علي:

ـ قتلك لسنقر سيكون إكمالا لخطة دليلة.

الدنف نظر إلى علي الطبيب من تحت قناع الأسد بسخرية، وقال:

ـ دليلة عندها الحكمة التي لم تُصبك.

دليلة علمت أن الخطر الحقيقي يحمله رجال جبال الموت، فلجأت بضعف لمن يقف أمامهم.

ـ رجال جبل الموت صناعة دليلة.

قالها علي الطبيب بحسم لم يدفع شكوك الدنف، وصدق على شكه الثلاثة نمور بالقول:

ـ كيف نصدقه؟!

ـ هذا الجبان الذي دربناه وهرب خوفًا.

ـ دعني سيدي الدنف أسحبه بالخارج وأقتله.

لم يلق لقول الثلاثة بالاً، وتقدم نحو علي الطبيب وتمتم:

ـ أنت ابن أمك بجبنها وليس ابن أبيك بشجاعته.. سيدك الذي يؤويك وتخاف أن تخرج من عباءة نعيمه سيُقتل الليلة...

صمت برهة، وقال بأمل لم يفقده كاملاً في علي:

ـ ما زالت شفاعة أبيك محمولة بداخلي.

أخرج الدنف خنجره وأظهر طرفه لعلي وقال:

ـ اقتل سنقر.. اقتل سنقر وأثبت أنك معنا وانضم لفريقنا.. آخر الليلة سنتولى أمر كل شيء.

نظر علي إلى الخنجر ثم نظر إلى الدنف وقال:

ـ قلت لك سيدي الدنف من قبل.. القتل ليس من اختياري.

وتركهم الطبيب علي متأكدًا أنه لا رجعة في ما أتى له الدنف، الناظر لعلي وهو يختفي وسط الضاحكين واللاهين والمستمتعين بضرب آلات الموسيقى راقصين تحت أقنعة حيوانية.

* * *

خارج اسوار مملكة سنقر غبار يتصاعد من دبيب خطوات جيش رجال جبل الموت تقدمًا، في أول الصفوف خيول يمتطيها المحاربون، وراءها وأفيال ضخمة تحمل ترسانات أسلحة، نوق حُمر كأنها جبل يتحرك فوقها محاربون غلاظ القلب، الكل مختال النفس غرورًا بعد الانتصارات المتتالية؛ إحدى عشرة مملكة أنهوا عليها، ومملكة سنقر الكلبي الآن هم أمامها وقد صغرت في أعينهم، فدب في قلوبهم أنها ستكون أسهل المعارك ونهاية الحروب؛ بعدها توزيع الملك.

أشار قائدهم بالتوقف عند النقطة المحددة له، لئلا يراه حراس أبراج أسوار المملكة، وأبلغ مساعده آمرًا:

ـ أبلغ كل قائد فيلق أننا سنتوقف هنا إلى أن تأتي الإشارة من دليلة.

أخذ المأمور الأمر ناغزًا فرسه، وانطلق يطوف في أنحاء جيش رجال جبل الموت بأمر رفع رايات الانتظار.

* * *

يرسو جثمان الأب على الشاطئ. ينزل من المركب رجال الموت حاملين الأب فوق اللوح الخشبي ذي الحوامل الأربع. يضعونه أمام دليلة في تقديس. يتبعهم الكهان السبع مطأطئين الرأس. صمت مطبق لا يسمع حولهم إلا صوت هدير المياه الآتي من سطح البحر خلفهم، وحسيس ألسنة النيران من المشاعل المحمولة حول جثمان الأب.

تقدمت دليلة في تقديس نحو أبيها ناظرة إلى وجهه بانتصار، ثم ركعت أمامه فتتمم الكهان بهمهمة حروف. برهة وانتهوا فكانت إشارة لانحناء رأس دليلة تعبدا، فتحرك كاهن خلفها حاملاً كأسًا ملئت بماء قرئ عليه ألفٌ من حروف السحر، وبتؤدة صب الماء على رأسها صبًا، وبعد انتهائه رفعت رأسها مُخاطبة أباها وهي تقطر ماء الكأس المسحور:

ـ أبي.. إن الآية تتحقق.. بعد تعب السنين وجدنا أنا وأبنك تابوتك المقدس.

وقفت دليلة في تحدٍ وهي مغمضة العينين وتابعت:

ـ نبوءة كتابنا المقدس تتحق.

ثم تمتمت بخشوع مطأطئة رأسها مغمضة عينيها:

«بأيديهم يذبحون أنفسهم وبدمائهم نحيا، نملك، نحكم»

ثم فتحت عينيها ونظرت إلى أبيها نظرة وداع:

ـ ابنك ينتظر عند تابوتك المقدس.

* * *

تحت أرض غابة النابشين التابوت المقدس. يقف شاهو حاملاً في يده الشعلة وقد انعكس ضوؤها على الجدران التي مسح من فوقها الغبار، فظهرت بوضوح نقوش الحروف ورسوم لأجسام رجال بوجوه ثيران قرونها حمراء يحملون التابوت المقدس، يمشون في بحر من دماء تظهر فيه أجسام بلا رؤوس ينفر من رقابها الدم، وآخرون ممسكون بأياديهم سكاكين يضعونها



على رقابهم ذبحًا، مسحورة أعينهم.

قال زوريق وهو ينظر إلى الرسم والنقوش تظهر تفاصيلها شعلته:

- بدم أعدائك وأعدائنا سنين سنقيم احتفالك المقدس يا أبي، وأنا هنا أقف حارسًا لتابوتك المقدس، حتى تستقر فيه.. لراحتك الأبدية.

ثم اندفع بقوة من إحدى فوهات الحُفر السبع صاعدًا إلى سطح الأرض في قلب غابة النباشين، حيث يتفرق رجال جبل الموت حول ساحة التابوت، مدججين بالأسلحة، رافعين المشاعل. رمقهم بنظره أمانًا بهم وقوة. ثم صاح بأعلى صوته:

- يا نابشي القبور.. الموتى الذين تسرقون عظامهم من القبور خفية سيأتون إليكم الليلة أحياء.. سعيًا بأقدامهم.

فرد عليه نابشو القبور بصراخهم المتقطع وقد أتى من كل أنحاء الغابة، فضحك زوريق زهوًا، بعدها نظر إلى حامل السهم مشتعلاً بجواره، وأشار له بالرمي فأطلق السهم نحو السماء مشتعلاً مخترقًا حتى رأته دليلة عند الشاطئ، فكانت إشارة للتحرك نحو أخيها حاملة إليه أباهما. وقبل أن تتحرك أوصت:

- عند رجوع هانا من القصر إليكم بخبر الانتهاء منهم أطلقوا الإشارة

إلى جيش جبل الموت بالهجوم على المملكة، وأوصوهم أننا لا نريد أسرى.

وتحركت ومن ورائها تحرك الكهان السبعة حاملين التابوت، وقد أحاطهم رجال جبل الموت حرسًا.

* * *

الطبالون توغلوا في جميع أزقة وحواري المملكة، ومعهم تحرك رجال جبل الموت المتنكرون في ملابس السقايين، يخفون تحتها الأسلحة حرسًا للطبالين لأجل اللحظة الحاسمة للقرع على الطبول.

* * *

بوجه الموت يتحرك علي الزيبق وسط المقنعين المحتشدين تزاحمًا واحتفالاً، إلى أن وقف خلف كبير جماعة الذعر، ومال عليه ووشوش قولاً في أُذنه اليسرى:

ـ الدنف ورجاله هم ضيوف دليلة.

انتفضت حواس كبير جماعة الذعر وبرزت عيناه بحثًا وسط الرؤوس المقنعة، حتى وجد وجه الأسد ينظر إليه وقد أحس الأسد أنه قد وقع في المصيدة، شاكًا في أن الخيانة أتت من ابن صديقه، فبحث الدنف بعينيه عن

علي الطبيب حتى وجده يقف بجوار عرش سنقر. تبادلا من بعدهما نظرًا فعلم أن علي الطبيب خذله للمرة الثانية، وقبل أن يهم الدنف بالهروب ومن معه كان كبير الذعر سبقه بإشارة للجند، فاخترق جند الذعر زحام الحفل فتوقف الاحتفال، وهمهم الناس استغرابًا، تتبع أعينهم الجند حتى حاصروا الدنف والثلاثة معه وتمت محاصرة الدنف والثلاثة. قام سنقر من على كرسيه ناظرا للدائرة التي أحاطت الأسد والثلاثة نمور منتظرًا إجابة لما يحدث، فصاح كبير الذعر من مكانه:

- يا درك البلاد سنقر الكلبي...

ثم تحرك نحو عرش سنقر، فتباعد له الناس إفساحًا للطريق، وتابع:

- أحب أن أزف إليك خبرًا سعيدًا.. إن من بحثت عنه سنين أتى اليوم إلى حفلتك لقتلك.

توقف كبير الذعر تحت العرش والتفت للجند وأشار لهم فخلعوا الأقنعة، فانكشف لسنقر ما كان يبحث عنه سنين، فخلع سنقر هو الآخر قناعه ليري بوضوح فدُهش وفرح وقال:

- أين كنت من زمن يا دنف؟!

ثم سخر:



ـ أخوك رأس الغول ينتظرك من زمن.

ثم نظر إلى دليلة قائلاً:

ـ الغبي أتى إلى قصري ليقتلني أمامك يا دليلة.. وأمام شعبي.

ثم صاح:

ـ يشنقون في الصباح.. الخونة.

تصفيق حاد من المحتفلين ما كاد ينتهي حتى أخرج المهرجون والبهلوانات والحواة خناجر تحت ملابسهم، فتشجعت زبيدة وهجمت مع رجال الدنف المتنكرين وأحاطوا دائرة جنود الذعر حول الدنف، فصرخ الناس واختبأوا في بعضهم.

تزاحموا.

تفرقوا.

إشارة بوق صاحت، خرجت على أثرها كتيبة من جند الذعر أحاطت دائرة المهرجين والبلهلوانات والحواة، فنظر الدنف إليهم إشارة لإنزال الخناجر، ففعلوا طوعًا، فتمت محاصرة الجميع، فقهقه سنقر وهو يقول مشيرًا إلى الحواة والمهرجين والبهلوانات:

- أغبياء مثل كبيركم.. كان أفضل لكم أن تكملوا ليلتلكم مهرجين وحواة وبهلوانات وتلوذوا بعدها بالهرب أيها الأغبياء.

فضحك المحتفلون مجاملين سيدهم الضاحك، ثم توقف عن الضحك فتوقف الناس، ثم صاح فجأة:

- يوضعون في السجن، وبعد أن ننهي حفلنا حتى الصباح نُكمل احتفالنا معهم وهم معلقون في المشانق.

يُسحب الجميع خارج القاعة شدًا وجذبًا، وعلي يتابع بنظره في ثورة بركان لا تجد فوهة انفجار، حتى خرجت من بهو القصر.

- هيا.. عودوا إلى حفلكم.

صاح بها سنقر، فصاح كبير جماعة في سنقر:

- اسمح لي سيدي سنقر.

نظر إليه سنقر باستغراب، فأكمل كبير الذعر:

- هذه ليست آخر مفاجآت الليلة يا سيدي سنقر الكلبي.

فتوتر سنقر لما سمع كبير الذعر ينطق اسمه كاملاً ويضغط لسانه في أعلى حلقه بـ«كاف الكلبي» نطقًا.

* * *

سهام تطلق لم يسمع الحرس صوت اختراقها الهواء متجهة نحوهم حتى تراشقت في أجسامهم، وهم فوق أبراج بوابة المملكة الرئيسية، فسقطوا موتًا، بعدها انطلق نحو سور المملكة عشرة من نابشي الحائط، فصعدوا السور بمخالبهم الحديدية في الأيدي والأقدام صعودا بخفة وحرفة حتى نزلوا من الجهة الأخرى داخل المملكة. قتلوا حرس الباب ثم فتحوا باب المملكة على مصراعيه. أحد نابشي الحائط أشعل سهمًا وأطلقه في السماء، كان إشارة لكبير الطبالين لقرع الطبول وقيادة أهل المملكة نحو الباب وإخراجهم كقطيع خراف. فضرب كبير الطبالين قرعًا فقرع الطبالون المتفرقون في أنحاء المملكة وسط الأزقة والحواري ضربًا بالطبول، وتحركوا ومن ورائهم رجال جبل الموت متنكرين في لبس السقايين حاملين الأسلحة تحتها لحماية الطبالين.

الطبل يتصاعد ويتذبذب بإيقاع ويتحرك بدوائر كإلقاء حجر على سطح نهر حتى دخل البيوت، ووصل إلى آذان الناس النائمين. استيقظوا كالمسحورين بفعل المخدر الذي شربوه في الماء، وكالمسحورين قاموا من فوق فرشهم، وفتحوا الأبواب وتحركوا في الحواري والأزقة كالموتى يقودهم الطبالون إلى باب المملكة الرئيسي.

فاطمة وسالم يختبئان وراء حائط وفي أيديهما الفرسان المحملان ببشارة النحل الأبيض. ينظران إلى الناس لا يطرف لهم جفن؛ وأعينهم قد انطفأت، ومن حولهم القرع يضرب على آذانهم، فنظرت فاطمة إلى سالم بتساؤل فلم تجد إلا نظرة حيرة من سالم.

* * *

كل الأعين معلقة بكبير جماعة الذعر. على يساره يجلس سنقر على عرشه وعن يمينه يقف علي الطبيب في وقفة أدب اشتهر بها كطبيب.

ـ أهناك شيء آخر يا كبير جماعة الذعر؟!

سأل سنقر وأخفى قلقه. نظر إليه شر الطريق مبتسمًا في هدوء أغاظ سنقر:

ـ هذه ليست آخر مفاجأة سيدي.

قالها شر الطريق لسنقر واستدار للجميع يخطب:

ـ الممالك الإحدى عشرة تم احتلالها من رجال جبل الموت، ما عدا مملكتنا الحبيبة.. وإني لأظن في ظل هذه الأحداث الكبيرة...

ثم نظر إلى سنقر وتابع:

ـ أرضنا ستحتاج إلى حاكم قوي!

صمت برهة يوزع بصره على الجميع، ثم صاح بحدة:

ـ حاكم يقف أمام رجال جبل الموت بقوة وحزم.

ثم نادي:

ـ يا زيبق.. يا زيبق...

فتوتر سنقر وقلق وسأل بحدة:

ـ هل تعرف الزيبق؟

التفت إليه كبير الذعر وقال ساخرًا:

ـ إنه من أفضل أصدقائي.. ولكن يا كلبي أظن أني سأغير كل ترتيبات خططه الليلة!

نظر علي المقيد بالطبيب بطرف عينه بتساؤل لما سيقوم به كبير الذعر، فأجاب في سرعة؛ أخرج سيفه وما كاد يرفعه حتى هوى به على رقبة سنقر الكلبي، فسقط رأسه تحت عرشه فكانت إشارة لإحاطة المكان كله بجنود الذعر.

همهم الناس بالخوف.

نظروا إلى بعضهم لعل أحدهم يجيب الآخر بما يحدث.

علي لقربه من العرش أصابت ثوبه دماء سنقر، وأصابه معها ذهوله مما حدث وهو واقف مقيد بعلي الطبيب. نظر إلى جمع الوجوه الحائرة حتى



ظهرت وسط الجمع أمه فاطمة تنظر إليه نظرة نداء.

ـ من معي يخلع عنه قناعه ومن ضدي يظل به.

صاح بها سنقر في الجميع. سريعا خلع الجميع الأقنعة إذاعنًا له. التفت شر الطريق لعلي الطبيب فبادر بهدوء:

ـ لم أكن أرتدي قناعًا من البداية.

ابتسم له كبير جماعة الذعر وتركه وتحرك نحو الفتاة المقنعة الملتصقة في كرسيها توترًا، وأشار إليها كبير الذعر بسيفه وصاح:

ـ هذه المرأة وراءها سر.. سر كبير تخطط له الليلة.. واليوم ستتيح لها أن تقص خطتها العظيمة التي قد هدمتها.. بل قطعت كل خيوطها.. هيا اخلعي قناعك.

ثم نغزها بسيفه فقامت الفتاة هانا بهدوء وخلعت عن وجهها قناعها. شر الطريق تسمر في نفسه لما رأى وجه الفتاة وسأل بصراخ:

ـ أين دليلة؟

فابتسمت هانا في غرور وقالت:



ـ أُمنا دليلة أذكى من أن تكون هنا أيها الغبي.

وطعنت نفسها تقديسًا.

* * *

وجه دليلة افترشت عليه ابتسامة. تقف بشموخ فوق تل المعبد العالي في قلب غابة النباشين وكل شيء قد تهيأ لها. تحتها المعبد به التابوت المقدس وحوله السبع فوهات، مداخله، يقف أمام كل فوهة كاهن بظهره تقديسًا. يتمتمون ويهمهمون بكلمات السحر في قلب الساحة كأنها ساحة مصارعين رومان؛ بيضاوية حدودها الأشجار، أمام كل شجرة رجل من رجال جبل الموت كأبواب لن تفتح إلا بعد أن يأتي إليهم أهل المملكة دون إرادة. في قلب الغابة يعلو صوت الاحتفال من النباشين، حيث يخبطون العظام في بعضها، مُنتظرين دون صبر دماء وعظام أهل المملكة.

«يأتون إليك أعداؤك طوعًا، يذبحون رقابهم بأيديهم قربانًا لك باكين أحياء»

أنهت دليلة قراءة الآية وأغلقت كتابها المقدس ووضعته بجوار رأس أبيها، كأمّ تضع رضيعها ثم نظرت إلى وجه أبيها ونزلت إلى أذنه توشوش بفرح:

ـ الآية تتحقق يا أبي.

قامت لما سمعت طرقات الطبل في قلب الغابة تتقدم نحوها، فلمعت عيناها لما تراه في خيالها من خروج أهل الممكة نحوها. أشجار الغابة الطويلة يقف وراءها وأعلاها ـ كأشباح تترقب ـ نباشو القبور. سمعوا الطبول تتقدم نحوهم، فصرخ قائدهم فردوا على بعضهم بصراخ كصراخ أشباح جن.

* * *

حصان فوقه زوريق ومن حوله بعض الحرس يقتربون نحو جيشه القريب المصطف أمام أسوار المملكة. استقر زوريق أمام قائد الجيش وقبل أن يستقر فرسه وقوفًا سأل وهو يشد اللجام:

ـ هانا رجعت؟

فرد قائد الجيش:

ـ لا يا سيدي شاهو.

فكر زوريق بقلق وقال:

ـ أرسلوا فريقًا للمملكة يعسعس عن الأخبار.. وإذا لم يرجع الفريق ولا هانا بالخبر...

صمت ونظر إلى السماء ثم أمر:



ـ اهجموا على المملكة والقصر عند ظهور الخيط الأبيض في السماء.

* * *

داخل بهو القصر عاد فيلق جماعة الذعر من هنجر السقايين آتين بالخبر. اخترقوا حشد المحتفلين الحائرين حتى وصلوا عند العرش الجالس فوقه كبير جماعة الذعر، وتحت قدميه رأس سنقر، وعن يساره جثة هانا.

قال قائد الفيلق بتوتر:

ـ هنجر السقايين لا يوجد به أحد، ولكن.. ولكن هناك شيء آخر!

وصمت برهة فقام كبير الذعر بحدة وقال:

ـ تكلم.

فتلجلج القائد قولاً:

ـ إن الطبالين والسقايين قادوا الناس خارج المملكة.. الناس يتحركون أمامهم كالموتى.

همهم الناس خوفًا. نظر إليه كبير الذعر مفكرًا لا يدري ماذا يفعل. نظر إلى هانا الطاعنة نفسها في حيرة.. انقض عليها في غيظ يهزها هزًا لعل فيها روحًا تجيب سؤاله الصائح:



- قولي لي.. قولي لي ما هي خطة دليلة؟

دفع جسدها أرضًا وقام صائحًا ينادي:

- يا زيبق.. يا زيبيييق.

* * *

«ما الذي فعلته؟ وما الذي خططته واخترته؟ الدنف حُبس ورجاله.. الناس يُساقون كالخراف لموتهم.. هل أخطأت يا أمي في حق نفسي؟ هل أخطأت يا سالم في حق ابنتك؟»

حيرة أصابت علي.. أفرغ كلامه وهو قابع فوق كرسي في ركن غرفته، حام بنظره فوق جدران غرفة الطبيب علي يبحث عن طاقة خروج، وقال باستهزاء:

- غرفة الطبيب علي!

ثم نظر إلى أمه الواقفة عند شباك غرفته وقال:

- يبدو يا أمي أنك على حق.. إن الشر دائمًا هو الذي ينتصر.

نظرت إليه الأم، ليس بنظرة فاطمة أُم علي الطبيب، بل بنظرة فاطمة زوجة حسن رأس الغول. تقدمت نحوه حتى وقفت فوق رأسه وأفرغت ما بعينيها في عينيه وأكدت له قولاً:

ـ كلمة ضحكت بها عليك وأنت صغير.. ستضحك بها على نفسك وأنت كبير؟

انطلقت خارج الغرفة وعادت وهي تشد بقوة جوال بشارة النحل الأبيض ورمته تحت قدميه، وقالت بقوة:

ـ قم واستقم.. قم يا علي يا بن حسن رأس الغول.. قمْ وأنقذ الناس وخذ بحق أبيك.

نظر إلى أمه مليًا. أمه التي طالما أحب أن تعود إلى حقيقتها، فاطمة زوجة حسن، فقال سالم بعد صمت:

ـ وزبيدة! زبيدة يا علي.

ثم ألقى له بسلاح العيار والعياق والشطار، فالتقطه علي بقوة ثم قال سالم مشجعاً:

ـ قُم.

صُفّي ذهنه من اليأس شيئًا ما وبثت أمه في روحه أملاً اتكأ عليه. نظر إلى بشارة النحل الأبيض المنسكب بعضه من فم الجوال، ثم نظر إلى نافذة غرفته بزجاجها الملون، وسريعًا ذهب إليها وفتحها ونظر إلى ما أراد التأكد من وجوده في قلب حديقة القصر فوجده، ثم التفت إلى أمه وسالم وقد اتخذ قراره باللحاق بأهل المملكة قبل ذبحهم.

* * *



خرج كبير جماعة الذعر من باب القصر الرئيسي، ومن ورائه خرج جند الذعر عازمين على محاربة رجال جبل الموت؛ قبل التوغل في المملكة.

* * *

داخل غابة النباشين المضببة تتحرك حشود أهل المملكة من كل صوب، يملأ آذانهم الطبل وتمتمة السحر. يتخطون نباشي القبور وكل منهم يحمل في يده سكينًا لامعة حادة، واليد الأخرى ترشق أظفارها المُتسخة في جذوع الأشجار اشتهاء لكنز يتحرك أمام أعينهم البارزة نحو أجساد فرائسهم متعة، تتسارع دقات قلوبهم الميتة لذة بليلة سيطحنون فيها عظام فرائسهم دقيقًا ويعجنونه خبزًا شهيًا، فشمشموا في الناس كالحيوانات، ثم وضعوا السكاكين الحادة في أيدي الناس بهدوء فأخذوها دون إرادة.

* * *

أمام بيت حسن رأس الغول يقف حمزة في المقدمة وخلفه أصفان والعيار، ينظرون نحو الأحراش الذابلة الممدودة أمامهم مد بصرهم. اختلط فيهم التوتر والقلق والحيرة.

ـ إشارة زبيدة تأخرت يا حمزة.

هكذا قال العيار فأكمل أصفان:



- من الممكن أن يكون حدث لها شيء.

فأتبع العيار:

- أو الدنف نفسه هو من حدث له شيء.

تركهم حمزة بخطوة إلى الأمام لئلا يتشتت أكثر مفكرًا حتى تكلم:

- سنصبر قليلاً.

* * *

أمام باب المملكة يصل كبير جماعة الذعر ومعه جنده. وجد الباب قد اقتحم وحرس الأبراج السبعة مُعلقين شنقًا على أعتاب باب المملكة. تقدم كبير الذعر في حذر، وتبعه الجند حتى أمام المشنوقين، ومد بصره إلى الخارج فوجد مشاعل تتقدم نحوه. ظهر له من تحتها رجال جبل الموت فوق خيولهم يتقدمون رافعين أسنة سيوفهم، فصاح:

- أغلقوا الباب.

أطاعوه قفلاً بصعوبة وأنزلوا مزلاجه الحديدي فوقه، وما كادوا حتى فوجئوا من خلفهم بحشد من السقايين دفعوا عنهم ثياب السقايين فظهرت تحتها بدلة رجال جبل الموت، فرفعوا السيوف وهجموا.

نظر كبير جماعة الذعر بحثًا فلم يجد إلا رفع سيفه والهجوم هو وجنده،

وهجموا فالتقت السيوف وجرت شررًا وقتلاً وطعنًا. كانت الغلبة في المعركة لرجال الموت، ففر كبير جماعة الذعر هربًا من ثغرة على حصانه. حماه البعض حتى هرب، فصاح قائد رجال جبل الموت:

ـ وراءه نحو القصر.

* * *

في غابـة النباشين عند خروج أهل المملكة من بين الأشجار شدت دليلة جسمها استقبالاً، واشرأبت بعنقها الطويل حماسة، وأدارت عينيها لترى خروج الناس من كل أنحاء الغابة حولها يتكاثرون، يتقدمون نحوها كحجاج بيت مُقدس، فرأوا بالسحر ما لم يروه من قبل.

افترشت ساحة الغابة أمامهمْ كحديقة من ورود وزينة.

الضباب يتحرك حولهم كسحاب أبيض في صباح مبتسم.

والهوام من البعوض والناموس يرونها فراشات وطيورًا بكل الألوان تطير نحو نور الساطع حول دليلة يكتسي به ما حولها. فسعوا نحوها سعيًا، يتدافعون، يجرون، يتزاحمون من حولها يودون لمس نورها. احتشد الجميع حولها كيوم قيامة فُتح فيه للناس باب الجنة ينتظرون الدخول بغير حساب.

* * *

أمام أسـوار المملكة جيش رجال الموت على رأسهم قائدهم ينتظرون قدوم هانا. تنفر الخيول من تحتهم. ينتظر قائدهم الإشارة الثانية، وهي ظهور الخيط الأبيض في السماء، الذي لم يظهر بعد. أخذ رشفة من غليونه فاشتعل من شهيق سحبه ونفخ دخانه زفيرًا في ملل.

* * *

مساكين.. فقراء.. ضحك عليكم الولاة.. ظلموكم ومن قبل ظلموا أهاليكم.. قُتل من قُتل وظُلم من ظُلم وسُجن من سُجن.. جاء الوقت لتستريحوا، والليلة ستختارون أنتم مصيركم.

دليلة تخطب في الناس وحولها الكهان السبعة يأخذون من فوق لسانها الكلام ويصيحون به في الناس كأنهم أبواق حرب. صمتوا مع نهاية كلام دليلة ثم رفعوا أيديهم بسكاكين في أيديهم إلى رقابهم ففعل كل الناس تقليدًا وراء بعضهم دائرة وراء دائرة حتى آخرهم.

من سبقوكم للعالم الآخر من الأهل والعشيرة في انتظاركم.. حيث الراحة.

أثارت دليلة بكلماتها في عقولهم خيال من سبقوهم موتًا. منهم من رأى دليلة على هيئة طفل مات لأم.

ـ هنا الأمان يا أمي.

قالها الطفل وحوله هالة من نور، ويشير إلى أمه بأن تأتي إليه.

انتحبت الأم بالبكاء.

ـ هنا الراحة.

قالها زوج مات لزوجته

ـ يا بنيتي لِمَ الانتظار؟

قالتها أم لأبنتها.

تتشكل دليلة سحرًا أمام الرائين في أقاربهم الموتى، فبكت الأعين وتعالى النحيب والصراخ عدوى أصابت الجميع، فأحست دليلة أن وقت سيل الدماء على أعتاب التابوت المقدس السبع قد حان، فصاحت:

ـ الليلة ستحددون مصيركم بأيديكم.

رفعت دليلة يدها بالسكين إلى رقبتها على هيئة الذبح، فرفع الناس أيديهم مقلدين لها باكين بالسكاكين. ابتسمت وتعالت نشوتها ونفرت دماؤها في أوداجها، ثم شدت رقبتها إلى السماء لتسهل الذبح شدًا، فشد الناس رقابهم نحو السماء، وعند سحب السكين على الرقبة ذهلت ملامح وأعين لما رأت ما رأت في السماء دائرتين تتوهجان نارًا كقمر قد اختنق، فانعكس ضوؤهما على وجهها وعلى وجوه الناس، فظنوا أن الشمس والقمر قد جمعا وأنهم حقًا قد جمعوا ليوم الحشر. دليلة دون إرادة أنزلت السكين تتأمل الآتي من السماء يقترب إلى الناس. فتبعها الناس إنزالاً

للسكاكين، وما كادت تستوعب أنهما منطادان حتى رميت من قلبهما ذرات شمع النحل الأبيض وقد أشعل فيها، تتنزل صانعة ذيل دخان أزرق ما كاد يصل إلى وجوه الناس حتى أصبح مثل الرماد، فامتلأت الساحة برائحة دخانه الذي غطى المكان وغرق الناس فيه رؤية واستنشاقًا، فجرى في الدم جريًا.

خرج صوت دليلة من الدخان صارخًا في رجال الموت:

ـ ارموهما بالسهام.

ولكن أنى لرجال الموت الرؤية؟

علي الزيبق في المنطاد يبحث في الدخان كالناظر في الماء إلى موضع دليلة، حتى هدأ الدخان شيئًا فشيئًا فهبط وانقشع، فوجدها واقفة فوق التل أمام جثمان أبيها تائهة. أمر علي الزيبق ربان المنطاد أن يرمي بثقل جوال الرمل المربوط في الحبل فوق التل، ففعل وما كادت دليلة تستوعب الساقط بجوارها حتى نزل علي من على الحبل المربوط بثقل الرمل خلفه، ثم أخرج سلاحه.

فاطمة وسالم في المنطاد ينظران إلى الناس وسط الدخان المنقشع من حولهم وتحتهم، ينتظران تأثير بشارة النحل الأبيض في الناس. منهم من يسعل ومنهم كالمستيقظ من النوم يحاول أن يستوعب أين مكانه، ومنهم من وجد السكين في يده فصرخ ورمى، ومنهم من رأى رجال الموت

يحوطونهم أمام الشجر ففزع، وأحدهم رأى الزيبق فوق التل فصاح:

ـ الزيييييق.

فاستدارت الرقاب نحو إشارة الصائح. وجدوا الزيبق فوق التل واضعًا سيفه على رقبة دليلة المتسمرة في غيظ، فلما رأى رجال الموت هذا اخترقوا زحام الناس نحو أُمهم دليلة إنقاذًا.

السكاكين التي وضعتها دليلة في أيديكم لذبح أنفسكم جاء الوقت لتوجه إلى رقبتها.

صاح علي في الناس فاستمعوا.

ـ كفى خوفًا وذعرًا وتيهًا.. كفي تخبطًا بعضنا في بعض.

كمُلقي الحجر في الماء الراكد يصل الصوت إلى الناس، الذين يحجزون رجال الموت عن التقدم نحو علي الزيبق.

مَن أدخلتكم المتاهة أمامكم.. لا تخافوا ولا تهربوا.. في أيديكم سلاح الدم الذي أعطوه لكم لتذبحوا أنفسكم.. لقد جاءتكم الفرصة لتخرجوا من عباءة الظلم.

فتشجع البعض منهم برفع السكين، وتصدوا البعض رجال جبل الموت الزاحفين نحو علي.

ثم صاح علي الزيبق:



ـ ماذا تنتظرون؟ أمامكم الساحرة الشريرة.

ابتسم بعدها ساخرًا وقطع حبل ثقل الرمل، فضخ رُبان المنطاد اللهيب في البالون بقوة فصعد بعلي وترك تحته سكاكين مظلومة تقف أمام سيوف ظالمة. السكاكين أكثر عددا، فاقت عدد رجال الموت، حتى تكتل العشرة فوق الواحد من رجال الموت.

الكهان سريعًا دخلوا من الفوهات السبع واختبأوا تحت الأرض، وعند دخولهم رأوا زوريق يغطي نفسه بغطاء التابوت المقدس، فأطفأوا المشاعل واختفوا في الظلام.

* * *

جيش رجال جبل الموت خارج المملكة، انقشعت فوقهم السماء بالخيط الأبيض إشارة الهجوم على المملكة، وقبل أن يطلق قائدهم إشارة الهجوم بدا له في السماء المنطادان متوهجين فوق غابة، فتحير بالتحرك نحو المملكة أم نحو الغابة.

ـ هناك شيء غريب يحدث.

قالها قائد الجيش لمُساعده.

أظن الخبر في غابة النباشين، فأمنا دليلة فيها.. هانا لم تأتِ وسيدنا زوريق لم يعد إلينا بعد.

نظر إليه قائد رجال الموت وقد اتخذ قراره، فأمر الجيش بالتحرك نحو غابة النباشين.

* * *

أمام باب بيت حسن رأى حمزة وأصفان والعيار ما رأى رجال جبل الموت من طيران المنطادين فوق غابة النباشين، ولكن حيرتهم فاقت حيرة قائد رجال الموت، فهذا سلاحهم الذي صنعوه في جزيرة المنارة؛ حامل البهلونات والمهرجين يطير فوق غابة النباشين؟

ـ ما الذي يفعله سلاح المنطاد فوق غابة النباشين؟

قالها حمزة في حالة استغراب انتابت الثلاثة. تبادلوا النظر حتى قال:

ـ أطلق الإشارة لرجالنا ليتبعونا نحو غابة النباشين.

فأطلق العيار سهمه في السماء مشتعلاً مائلاً حتى سقط ناحية الجنوب، فعلم رجال الدنف المختبئون أين سبيل تحركهم، وضربت حوافر خيل الثلاثة نحو غابة النباشين في سرعة.

* * *

ـ نحو القصر.

قالها علي لربان المنطاد، بعدها أشار لأمه وسالم نحو القصر، وقبل أن

يخرج من فوق الغابة رأى دليلة قد أحاطها رجال الموت يمنعون عنها من يقترب.

- جثمان أبي وزوريق والتابوت.

قالتها دليلة بحسم، فنظر إليها رجال الموت بتحدٍ وثقة أن لا أحد سيقترب إليهم.

* * *

من بوابة بهو القصر دفعة واحدة دخل كبير جماعة الذعر وبعض جنده الذين نجوا من رجال الموت أ همهم الجميع عندما رأوه عله يخبرهم بما يحدث خارج القصر.

- ما الذي يحدث بالخارج يا كبير جماعة الذعر؟

قالها قاضي القضاة مستنجدًا يكاد يبكي.

كبير جماعة الذعر حتى لم يلتفت له، وقال وهو يتجه نحو العرش القابع تحته رأس سنقر الكلبي ينظر إليه ميتًا:

- ليحمل كل منكم سلاحًا ويدافع عن نفسه.. رجال نجبل الموت بقلب المملكة.

تعالت أصوات الخوف والذعر.



ـ أعطوهم الأسلحة.

قالها كبير جماعة الذعر لجنده، قبلها صعد الدرجات السبع نحو العرش وجلس.

* * *

فوق سطح القصر يهبط المنطادان، وبخفة يقفز علي ويجري نحو منطاد أمه يسندها نزولاً، وبعدها سالم.

* * *

في غابـة النباشين من ناحية الشمال أتى جيش رجال جبل الموت، ومن ناحية الشرق أتى حمزة وأصفان والعيار، وخلفهم رجال الدنف، فتراءى للجمعين الفوضى في الساحة الدائرية. أشار قائد جيش رجال الموت بإشارة فهمها رجاله بالإحاطة فتحركت ميمنة الجيش وميسرته لصنع دائرة يحبس فيها الناس، ثم بإشارة أخرى اخترق القائد الناس بفرسه، ومن خلفه فيلق يصنعون ممرا بقتل الناس طعنا وبطشًا بالسيف، يخترقون نحو التل الواقفة فوقه دليلة ناظرة إلى أولادها، فصاحت في القائد:

ـ لا تقتلوهم ما زلت أحتاج دماءهم.

حمزة التقط بعينيه كل شيء سريعًا، فأمر بحلقة حول حلقة رجال الموت

المحيطة بالناس، وشق بممرًا مقابل ممر رجال الموت لإنقاذهم وإخراجهم من قلب الساحة آمنين.

* * *

علي يتقدم جريًا ووراءه أمه وسالم داخل ممر حجري به غُرف السجون عن اليمين والشمال، أبوبها الحديدية صدئة، فخرجت رائحتها واختلطت برائحة حجر السجون الملطخة بدماء المظلومين وعرق السجانين. ظهر ثلاثة منهم فجأة يتقدمون من نهاية الممر نحو علي الزيبق شاهرين السيوف، يخترقهم الزيبق بسيفه بطعنة في فخذ أحدهم قبل أن تطير يد آخر بسيفه، والثالث ركله علي الزيبق بقدمه فأسقطه على ظهره ثم جثا فوق صدره ضاغطًا عليه بركبته، فشعر الحارس بحجر الأرض البارز في ظهره ألمًا.

ـ أين حُبس الدنف؟

سأله علي وهو ينزع من خصره حلقة مليئة بمفاتيح السجون.

أشار له الحارس نحو زنزانة الدنف آخر الممر.

ـ أيها مفتاح باب سجنه؟

نظر السجان إلى المفاتيح بتوتر وبعد بحث بخوف وجده، فأمسك بالمفتاح لعلي الذي أخرجه من الحلقة وألقى به لسالم فالتقطه وهرول به نحو باب السجن، ومن خلفه فاطمة، حتى وصل للباب ووضع المفتاح



يحاول الفتح بلا جدوى، فأتى علي خلفه وقد قيد السجان.

- المفتاح لا يفتح.

قالها سالم لعلي، فحاول علي مرات وفي الثالثة فُتح فاندفع علي وهم بالدخول، فوجد البلهلونات والمهرجين والحواة وعلى رأسهم الدنف وبجواره زبيدة، يقفون ككتلة ناظرين إليه، فبادر الدنف:

- كنت أعلم أن بذرة حسن رأس الغول لم تمت بداخلك.

نظر علي من تحت قناعه لزبيدة فتلجلجت بالإجابة:

- كان يجب أن يعلم أنك لست بخائن له.

فقال علي بتوعد مازحًا:

- نتتهي مما نحن فيه أولاً.

تندفع فاطمة بالدخول قائلة:

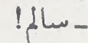
- ليس هذا وقته.. هيا.

عندما رآها الدنف قال بفرح:

- السيدة فاطمة!

يدخل سالم مندفعًا:

- ليس هذا وقته يا دنف.



ـ سالم!

قالها الدنف بوحشة فابتسم سالم.

فأسرع علي بالقول:

ـ جيش دليلة يقف أمام أسوار المملكة، ولا يوجد أحد يحمي أرضنا سوانا.

فتقدم الدنف نحو علي وقال بتحدٍ:

ـ وجيشي؟

* * *

في غابـة النباشين حمزة وأصفان والعيار صنعوا بجيش الدنف دائرة حول دائرة رجال الموت، وشقوا طريقًا من الوسط لإخراج الناس.

دخل حمزة وأصفان والعيار فوق خيلهم إلى ساحة التابوت ومن ورائهم جيش رجال الدنف. حمزة التقطه بعينيه كل شيء سريعًا.

حلقة حبس فيها أهل المملكة من رجال الموت، يحاولون الدفاع عن أنفسهم بالسكاكين، تسبقهم أيادي رجال الموت بسيوف تطول الرقاب. وشُق برجال الموت في الناس طريق لتهرب منه دليلة وأخوها زوريق والكهان السبعة من حولهم الحرس، فأسرع حمزة ببديهته بعمل حلقة أمام حلقة رجال الموت وشق طريقًا لأهل المملكة لإخراجهم وباقي جيش الدنف.



ـ من هنا.. من هنا.

صاح بها حمزة في الناس مشيرا إلى الطريق الآمن للخروج من غابة النابشين.

* * *

في بهو القصر تسلم كل واحد من الحاشية، رجالاً ونساء، سلاحًا للدفاع عن أنفسهم، يقلبون السيوف ناظرين إليها بخوف من أن تصيب شفرتها الحادة أجسامهم، قطع عليهم خوفهم دخول الزيبق وقد أحاطه الدنف وأمه وسالم وزبيدة ومن ورائهم ألوان متداخلة؛ البهلوانات والحواة والمهرجون. وما كادوا يتوسطون البهو حتى أحاطهتم الحاشية تاركين خلفهم عند العرش كبير جماعة الذعر الذي ينظر إليه كبير البصاصين من تحت العرش بسخرية.

ـ أنقذنا يا زيبق.

قالها قاضي القضاة متوسلاً بعينين زائغتين هو ومن معه.

ـ هؤلاء؟ البهلونات والمهرجون ينقذونكم؟!

قالها بصوت غليظ من ناحية باب البهو قائد كتيبة لرجال الموت الرافعين السيوف هاجمين نحوهم. رمت الحاشية السيوف التي في أيديهم وجروا نحو أركان البهو مختبئين. سريعا التقط الأسلحة البهلونات والمهرجون والدنف

وفاطمة وسالم وزبيدة، والتقت السيوف بالسيوف ودارت المعركة؛ سقطت فيها طاولة الطعام وتماثيل القصر، وقطعت الستائر الحريرية الحمراء مما عليها من الدم. وعلا صراخ من يسقطون قتلى حتى استسلم قائد كتيبة رجال الموت. فلما رأى كبير جماعة الذعر أن الغلبة للزيبق انسحب خلسة، ولكن عين فاطمة زوجة حسن رأس الغول كانت تبحث عنه.

- إلى أين أنت ذاهب؟

قبل أن تنطق بها فاطمة وضعت سن سيفها خلف رقبة كبير جماعة الذعر، فوقف على أعتاب باب هروبه، والتفت وهو يعلم صاحبة الصوت:

- فاطمة!

لم تجب على ما يدور في عقله من أسئلة حائرة: لماذا تشارك الخادمة طابخة الطعام مع الزيبق؟ ما علاقتها به؟ ولماذا تضع السيف فوق رقبته؟ فقال بغضب:

- دعيني أهرب يا فاطمة.

فقالت بدهاء:

- ألا تريد أن تعلم من هو الزيبق؟

نظر إليها باستغراب فردت عليه بضرب عنقه. من قوتها سقط رأسه تحت قدميها كما سقط رأس حسن بسيفه تحت قدميه. بعدها أجابته وقالت:

- الزيبق هو علي.. ابن حسن رأس الغول.



أمام باب المملكة

شروق صباح يتنفس أول أنفاسه لامس باب المملكة المفتوح على مصراعيه، يسعى نحوه إنهاكًا وتعبًا ومصابين محمُولين الناجون من غابة النباشين، خلفهم حمزة وصديقاه المحاربان وجيش رجال الدنف يحمون الظهر. أقفلوا الباب خلفهم لما اطمأنوا أن الجميع قد احتمى بالداخل، ضمدوا الجراح وسقوا ماءً حتى ارتووا.

ـ السيييبق..

صاح بها الطفل الألثغ مُقلدًا الزيبق، حاملاً في يده عصاه الخشبية المنحوتة على هيئة إبرة النحلة، أشار بها نحو الزيبق الآتي نحوهم ووراءه كل من كانوا في الحفل، آخرهم قاضي القضاة، وحوله الرجال. الدنف ومن معه عن يمينه وأمه .وزبيدة وسالم بجوار عن يساره. فوجئ حمزة والعيار وأصفان بتقدم فاطمة نحوهم، فنظروا إليها بضيق، ولما استقرت أمامهم قالت:

ـ سامحوني.

فنظر إليها الثلاثة بقلوب لا تحمل غلاً ولكن لم ينضح ذلك على وجوههم التي أبعدوها عن فاطمة، حتى تدخل الدنف الذي وقف بجوارها وقال:

ـ ماذا تقولين يا فاطمة؟!

نظر إلى الثلاثة نظرة يعلمونها، فتداخلوا قولاً مُؤمّنين على قول الدنف:



ـ كيف حالك يا سيدة فاطمة؟

قالها حمزة بود.

ـ بالتأكيد لا نحمل لك أي ضغينة.

قالها العيار مبتسمًا، واكتفي أصفان بالنظر إليها مرحبًا، فتقدمت إليهم خطوة وهي تشير إلى علي الزيبق في فخر، وقبل أن تهم بالكلام قاطعها حمزة:

ـ لا تقولي إن علي هو الزيبق!

ـ اخفض صوتك.. لا أحد يعلم أن الزيبق هو علي.

همست بها وهي تبتسم، فنظر الثلاثة إلى بعضهم استغرابًا، ثم نظروا إلى الدنف فابتسم.

ـ يا سيييبق.

هذه المرة صاح بها الطفل من فوق سور المملكة، فاستدارت الرقاب كلها نحوه، فأشار إلى خارج السور للزيبق بعصاه؛ في سرعة أصبح علي الزيبق بجواره حتى رأى من وراء السور حشود جيش رجال جبل الموت على مد بصره طولاً وعرضًا يحيطون المملكة، كنصف حلقة تتسع لخنق من بداخلها.

فيها فريق سهام ورماح ومجانيق عالية، وشمس تنعكس على أقنعة غضب نحاسية يرتديها كل الجيش، على رأسه دليلة وأخوها زوريق.



ـ خائف؟

سأل علي الزيبق الطفل، فأجاب بطفولية:

ـ لا.

قالها الطفل بحسم، فبسأله علي الزيبق:

ـ ما اسمك؟

ـ علي.

نظر إليه علي بنظرة يطلب منه بها ألا يقلده كذبًا حتى في اسمه، ففهم الطفل ورد سريعًا:

ـ لا.. إني لا أقلد اسمك.. اسمي علي بابا.. لأنه لا يوجد لي أب ولا أم.

تبسم علي الزيبق له ومسح بيده على رأسه. فرح علي بابا بها. صعد الدنف بجوار علي فوجد ما وجد الزيبق. جيش دليلة. تبادلا نظرًا، فعلم الدنف تخوف علي من الفارق بين الفريقين. بهدوء فاجأ الدنف علي بإخراج الحجر يشع نوره الأخضر كزمُردة. مد الدنف يده به لعلي فمد علي يده، وعند لمسه فاضت ذاكرته بأول لقاء بينهما فوق المنارة، لما سأله الدنف:

ـ لماذا أتيت إلى هنا؟

فرد علي بلسان يتلجلج:

ـ تائه بين الطرق.. تعبت.. يئست.. أبحث عن طريق أمشي فيه.. طريق.. طريق لا ينطفئ نوره حتى بعد موتي.

وضع علي الزيبق الحجر في جيبه. ابتسم الدنف له ثم التفت إلى أصفهان وأومأ برأسه بإشارة يعلمها أصفهان، فأخرج سهمًا ذا رأس أحمر وأشعله ثم أطلقه نحو السماء فانفجر باشتعال.

* * *

أرض واسعة خلف المملكة، ارتص عليها جيش من المناطيد، كل منطاد بداخله مجموعة من رجال الدنف. لما رأوا السهم الأحمر المشتعل، أشعلوا النيران في البالون، فانتفخ احمرارًا، وعلت المناطيد فوق الأرض، وامتلأت بها السماء متحركة نحو الدنف.

* * *

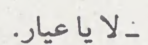
أمام باب المملكة المفتوح على مصراعيه، وقف صفًا واحدًا زبيدة وسالم والدنف وحمزة وأصفهان والعيار وفاطمة، ومن خلفهم أهل المملكة بالسكاكين، ومن خلفهم الحاشية وعلى رأسهم الزيبق رافعًا سلاحه. تبادل الصف الأول نظرات لعلها تكون الأخيرة.

قطع النظرات مُنشق من الصفوف، اخترقها وخرج نحو دليلة.

ـ يا دليلة.. يا دليلة.. إني معكم يا دليلة.

صرخ بها قاضي القضاة وقد حسم أمره لما وجد الغلبة لجيش دليلة. رفع العيار سهمه نحوه ليقتله، وقبل أن يشد النبل...





ـ لا يا عيار.

قالها الدنف بحسم ثم أردف:

ـ دعه لاختياره.

رفع علي سيفه إشارة للهجوم، فتحمس وتبعه الجميع، وقبل أن يجري الزيبق نحو جيش دليلة ظهرت أمامه على الأرض وأمام من معه ظلال المناطيد تتحرك، فنظر إلى السماء ونظر الجميع. اثنا عشر منطادًا ملونًا في السماء تتحرك بقوة نحو جيش دليلة.

* * *

ـ لقد أتوا لأجل اللعب.

قالها زوريق استهزاءً لأخته دليلة التي ابتسمت في سخرية، وقالت في ثقة:

ـ أأكدت على رجال الموت ألا يقتلوا أهل المملكة المتبقين؟

ـ بالطبع.. لكن الذي لا أفهمه يا دليلة لماذا نحافظ على حياة الزيبق؟

ـ أحتاجه في مملكتي الجديدة.. لعله يُصبح منا.. انظر لشجاعته.

فتحول زوريق بنظره نحو علي الذي رفع سيفه نحوهم يسعى، ومن خلفه يسعى الجميع نحو جيش دليلة بشجاعة:

ـ عند إشارتي سنغلق عليهم الحلقة ونحبسهم فيها.



صاحت بها دليلة، فرد عليها رجال الموت بصرخة حرب.

- إنهم لا يتصاعد حتى الغبار من دبيب أقدامهم.

قالها قائد رجال الموت فضحك من حولها، فأصابت عدوى ضحككهم الجيش كله، فتردد حتى وصل للسماء وسمعه من بداخل المناطيد الذين سبقوا تحتهم علي الزيبق ومن معه.

- شدوا السهام نحو المناطيد.

قالها قائد جيش رجال الموت، فشدوا النبال نحوها حتى زمجرت في انتظار دخولها حيز السهام.

- اخفض سرعتك جريًا يا زيبق.

صاح بها الدنف في الزيبق وهم يجرون ففعل.

ثم نظر الدنف إلى المناطيد وهي تدخل فوق جيش دليلة. عندها سقط وابل من كرات النيران مشتعلة سبقت رمي السهام. سقطت كشُهب ترصد الشياطين رصدًا. تنفجر عند ارتطامها بالأرض وتفرش نارًا. هاجت الخيل وألقت الأفيال من فوقها راكبيها، وتخبط الجيش هاربًا من النيران.

وقف علي ومن معه متسمرين مكانهم ينظرون.

دليلة يحترق فستانها. يشتعل شعرها.

يشتعل نصف وجهها.

تتمرغ بجسمها في الرمال.



زوريق يرمي أباه من التابوت.

يختبئ فيه متغطيًا.

يهرب الكهان السبعة صارخين، ورائحة دخان بشواء لحم يحترق، وأفيال تجري وتسحب معها المجانيق المعبأة بأحجار البارود، فتنفجر فتذعر وتجري وتدهس تحت أقدامها من يقف في طريقها. صراخ وعذاب ورائحة لحم يشوى ودخان ثقيل يهبط ثم ينقشع فيظهر ما خلفه. الفوضى تعم أرض المعركة. موتى ومتألمون متفرقون فوق الرمال بحث علي الزيبق فيهم عن رأس العنكبوت دليلة دون جدوى.

أُسر من رجال جبل الموت من أُسر، وتم تقييدهم في كومة، ونزع أهل المملكة من على وجوههم الأقنعة الغاضبة الناحسية المخيفة، فما وجدوا إلا وجوه بشر مليئة بالخوف والاستنجاد. وقف الدنف فوق رأس قاضي القضاة المحترق، عرفه من خاتمه الذهبي في إصبعه المعوج عظمه. تبادل المنتصرون نظرات الفرح، وكانت نظرة فرح الزيبق الأولى لأمه الغارزة سيفها في الرمال مستندة عليه بإنهاك يتطاير من حولها الدخان. ردت عليه ابتسامة بفرحة عارمة. ثم طاف ببصره ليبحث عن الابتسامة الثانية.

- إني خلفك.

فالتفت فوجدها، زبيدة بابتسامتها المُشرقة، فرد بابتسامة انقشعت سريعا فذهلت زبيدة بعين تتساءل:

- ما بك يا علي؟!



فبحث علي بنظره في أنحاء المكان وهو يسأل:

- أين علي؟

فسألت زبيدة وهي خائفة:

- علي بابا!

فصاح علي بالنداء:

- يا علي بابا.. هل رأي أحدكم علي بابا؟

فدب في المكان البحث عن علي بابا وسط الدخان الذي يتطاير أثره في أرض المعركة. صاح الجميع بالنداء المتداخل:

- يا علي بابا



بيت حسن رأس الغول

جُدد بيت حسن الطيني وطليت أعمدته الخشبية الخارجية بالأبيض. يطل البيت على أرض خضراء أشجارها عالية كما الماضي وفوقها تغرد الطيور. وأمام الباب يجلس علي بابا حاملاً بين ذراعيه رضيعًا يهمهم، فمد علي بابا له يده بثمرة وقال مداعبًا:

ـ تأكل؟

وعند مد الثمرة لفم الرضيع خرج من خلفه علي بن حسن رأس الغول وقال:

ـ أنت هنا يا علي بابا وأنا أبحث عنك!

ثم تفاجأ علي بن حسن رأس الغول بالثمرة في يد علي بابا فقال:

ـ علي بابا.. إياك أن تكون أطعمت ابني من هذه الثمرة!

لا يرد علي بابا ويطأطئ رأسه، فيأخذ علي ابنه من علي بابا في خروج زبيدة.

ـ أمسكي ابنك.. لقد أنقذته من يد علي بابا.

فتتبسم زبيدة وتأخذ رضيعها في حضنها.

ـ لن ينتظركم الفطور.

خرجت فاطمة وهي تصيح بها ثم أمرت:

ـ هيا بالداخل.

دخلت فاطمة بيت حسن رأس الغول، ومن خلفها زبيدة برضيعها، ثم مد علي الزيبق بيده لعلي بابا فأمسك بيده ودخلا وأغلقا خلفهما الباب. لم يشعر أحد من أهل البيت بالنحلة التي تطير آتية من حديقة البيت تطن فرحًا، ثم وقفت فوق مقبض الباب وقد استقر جناحاها بهدوء ثم ابتسمت.





(كلنا ندخل المتاهة .. الحقيقيون فقط يخرجون منها)

في عالم أسطوري يقف فيه الشر بقوة ...
سُنقر الكلبي، كبير جماعة الذعر، كبير البصاصين ومن جبل الموت (دليلة) التي سيطرت علي الأثني عشر مملكة وبنت متاهتها كنسيج خيوط العنكبوت حتي تاه كل أهل الممالك فيها، يتخبطون في بعضهم.. يخافون من بعضهم، في ذلك العالم لم يعد احد قادراً علي التميز بين الخير والشر، إلا بعض الأبطال بقيادة حسن رأس الغول.. قاوموا بشدة، ولكن المقاومة داخل بيت العنكبوت تُقيد اكثر...

إلي أن ظهر (علي الزيبق) ابن حسن رأس الغول الذي فعل شيء لم يفعله أحد من قبل .

أسطورة
علي الزيبق
لمؤلف رواية آخر أيام الأرض



